@ketab_n
31.3.2015

ديفيد فوينيكوس

ناتالي...

والبحث عن الرقة

رواية

@ketab_n

ترجمة : راغدة خوري

ديفيد فوينيكوس

ناتالي...

والبحث عن الرقّة

رواية

ترجمة: راغدة خوري

Twitter: @ketab_n

ناتالي...

والبحث عن الرقة

Twitter: @ketab_n

- ديفيد فوينيكوس
- ناتالي.. والبحث عن الرقة
- ترجمة: راغدة خوري

- جميع الحقوق محفوظة للناشر©

- الطبعة الأولى 2013
- الإخراج الضوئي: هالا خليل
- الناشـــر: دال للنشـــر والتوزيـــع

سـورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170

هـاتـف: 00963 944 464830

البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

All rigyts reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing form the publisher.

Twitter: @ketab_n

- 1 -

كانت ناتالي متحفظة نوعاً ما (كنوع من الأنوثة السويسرية). كانت قد تجاوزت سن المراهقة دون مشاكل تذكر، مراعية بذلك المسالك الآمنة للمشاة. في سن العشرين، كانت تنظر إلى المستقبل كوعد. تحب الضحك وتحب القراءة، وهذان أمران من النادر التوفيق بينهما، بما أنها كانت تفضل القصص الحزينة. لم يكن التوجّه الأدبي في الواقع قريباً من ذوقها، فقد قررت متابعة دراستها في الاقتصاد. تحت هيئتها الحالمة تركت مساحة قليلة لتعبير «فيما بعد». تبقى لساعات وهي تتأمل الانحناءات حول تطور PIB[1] في أستونيا وابتسامة غريبة ترتسم على وجهها. في مرحلة النضج، كان يصادف لها أن تعاود النظر أحياناً إلى بعض لقطات طفولتها، نحو بعض اللحظات السعيدة التي كانت تلملمها من بعض فصولها، حين كانت تركض على الشاطئ، تصعد إلى

[1] PIB النفط الخام المنتج: مؤشر اقتصادي يستخدم لقياس إنتاج دولة ما.

Twitter: @ketab_n

الطائرة، تنام بين ذراعي والديها. لكنها لم تكن تشعر بأي حنين لتلك الفترة، مما جعل هذا يبدو غريباً لمن تتحلّى باسم ناتالي[2].

-2-

يرغب بشدّة معظم الثنائي من العشاق بسرد قصصهم، معتقدين أن لقاءاتهم هي نوع من الحدث الاستثنائي، وغالباً ما أغنت ارتباطاتهم المتعددة التي كانت تتشكل في التفاهة التامة، نوعاً من التفاصيل، واهبةً إيّاهم مع ذلك نوعاً من النشوة. في النهاية يبحث المرء دوماً عن تأويل كل شيء.

التقى فرانسوا وناتالي في الشارع. هناك دوماً نوع من الحساسية لرجل يصطدم مصادفة بامرأة في الشارع. ففي حالة كهذه ستتساءل النساء لا محالة بينهنّ وبين أنفسهن إن لم يكن هذا الرجل قد قضى وقته في التفكير بهذا الأمر، بينما غالباً ما يقول الرجال أن هذا قد حصل معهم للمرّة الأولى، وعند الإصغاء إليهم، نراهم قد أُصيبوا فجأة بنوع غير مفهوم من الاستلطاف، مما يسمح لهم بالتصرّف بحميميّة اعتيادية، فتجيب النساء عندها بطريقة آليّة، بأن لا وقت لديهنّ. لم تشذّ ناتالي عن هذه القاعدة، وكان هذا في منتهى الغباء: لأنه ببساطة، لم يكن لديها أي عمل هام تقوم به،

---

[2] غالباً ما يلاحظ أن هناك نوع من الحنين في طبع من تدعى باسم ناتالي.

Twitter: @ketab_n

وكانت ترغب بشدّة في مصاحبة أحد ما. لم يكن أحد ليتجرأ قط على الاقتراب منها. كانت تطرح على نفسها مراراً السؤال التالي: هل أبدو فعلاً مبرطمة أو كسولة جداً؟ في إحدى المرات، قالت لها إحدى الصديقات: تبدين دوماً بهيئة المرأة الملاحقة من الوقت، وليس بمقدور أحد أن يستوقفك.

عندما يلتقي رجل بامرأة لا يعرفها، فذلك كي يقول لها تعابير جميلة. لكن، هل يوجد نوع من الهجوم الذكوري، الذي يجعل امرأة ما تتوقف كي يوجّه الرجل إليها ضربة بقوله: «كيف تنتعلين حذاءاً كهذا؟ فأصابع قدميك مسجونة داخله وكأنها في الغولاغ. يا للعار، أنت بمثابة «ستالين» لقدميكِ!» من باستطاعته التفوه بكلام كهذا؟ بالتأكيد ليس فرانسوا الذي كان يوصف بالرجل العقلاني حين يخصّ الأمر المديح والثّناء. كان قد حاول جاهداً هنا، أن يعطي تعريفاً لشيء غير قابل للتعريف، ألا وهو: «الارتباك». لكن لمَ توقفت هي؟ لابد وأن هذا كان عائداً إلى طريقة تصرّفه، فقد شعرت بشيء ما جديد، شيء طفولي تقريباً، كما اللحن الموسيقي المرتجل، كما القصائد الملحمية للشعراء المتجولين. وهي بدورها، كان ينبعث منها نوع من التأثير العفوي على المشاعر، نوع من السمو في حركاتها، مما جعله يقول في نفسه لحظتها: «إنها تبدو تماماً مثل المرأة التي يجب عليّ الذهاب معها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في جنيف». حينها، شدّ من عزيمته واستجمع قواه بين يديه ـ كان يتمنى لحظتها لو أنه يملك أربعة أيادٍ ـ خاصّة أن الأمر كان يحدث معه للمرة الأولى. هنا، على هذا الرصيف التقيا، وتعارفا بطريقة جد كلاسيكية، والتي غالباً ما كانت السبب في

Twitter: @ketab_n

تحديد بدايات أمور، قد لا يكون لها قيمة فيما بعد.

تلعثم بالكلمات الأولى، لكن فجأة، انسابت منه دفعة واحدة، بطريقة سلسة وصافية. تدفّقت كلماته مدفوعة بتلك الحيوية العاطفية، لكن المؤثرة جداً من فقدان الأمل. هذا هو حقّاً سحر المفارقات الكامنة فينا: «فقد كان الموقف يحوي الكثير من عدم الارتياح ليخرجا منه بتلك الأناقة خلال ثلاثين ثانية، تمكّن حتى من إضحاكها، فشكّلت تلك الابتسامة ثغرة في المجهول، وافقت على إثرها على دعوته لتأخذ معه فنجاناً من القهوة، ففهم عندها أنها لم تكن أبداً في عجلة من أمرها. بدوره، وجد هذا غامضاً جداً، أن يكون باستطاعته قضاء فترة مع امرأة كانت قد دخلت للتو في مرمى نظره. كان يحب دوماً النظر إلى النساء في الشارع، يتذكّر أنه كان يتحلّى بنوع من المراهقة الرومنطيقية القادرة على ملاحقة الشابات من ذوات العائلات الراقية حتى باب منزلهن. كان يصادف له، في ميترو الأنفاق، أن يغيّر القاطرة كي يكون بالقرب من إحدى الفتيات التي يكون قد لمحها من بعيد. لكنه مذ استسلم لدكتاتورية أحاسيسه لم يعد يملك تلك الرومنطيقية، متخيلاً أن عالم النساء يستطيع أن يُختصر بامرأة واحدة. سألها ماذا تريد أن تشرب، فاختيارها سوف يشكل لديه نقطة الفصل. فكّر: «إذا ما اختارت قهوة خالية من الكافيين، فسوف أنهض وأذهب على الفور. لا يحق لنا شرب تلك القهوة في لقاء كهذا، فهو المشروب الأقل حميمية على الإطلاق. ثم، ليس فنجان شاي بأفضل منه بكثير، بالكاد كانا قد التقيا، وها هما يصبحان فوراً في نوع من وحدة الحال المائعة، وسينتابه شعور أنهما سوف يقضيان كل أيام

Twitter: @ketab_n

الآحاد بعد الظهر جالسين يشاهدان التلفاز، أو ربما أسوأ من هـذا، سوف يقضيانه عند بيت حميه. نعم، فالشاي يضفي جوّاً عائلياً لا لُبس فيه. ماذا ستطلب إذاً؟ مشروب كحولي، هذا ليس مستحباً في ساعة كهذه، فالمرء يراوده الإحساس بالخوف من امرأة تبدأ بطلب مشروب كهذا فوراً ودفعة واحدة، حتى ولو كان هذا المشروب عبارة عن كأس من النبيذ الأحمر، فهو غير مناسب. تابع فرنسوا انتظاره وتكهناته بما سوف تختاره كمشروب وهو مستمر في تحليله للسائل، وللانطباع الأنثوي الأول. ماذا سيحدث الآن؟ هل ستختار الكوكاكولا أو نوعاً آخر من الصودا؟... لا، هذا غير ممكن، إنه مشروب بعيد عن الأنوثة، والأمر سواء فيما لو طلبت فطيرة طالما هي هنا في النهاية. عاد ليقول في نفسه إن هي طلبت عصيراً فسيكون هذا أمراً حسناً. نعم عصير، إنه لطيف وينسجم وحالتيهما. فهو ودّي وغير مؤذٍ كثيراً للإحساس. فالفتاة تبدو حلوة ورزينة. لكن أي نوع من العصير؟ من الأفضل أن تتجنّب أنواع المشروبات الكلاسيكية: لتبتعد عن عصير التفاح أو البرتقال، فهو شائع جداً. لا بد أن تتحلّى بقليل من الغرابة، دون أن تخرج كثيراً عن المألوف. عصير الباباي أو الجوافة، سيكون هذا مخيفاً، لا، الأفضل أن تختار نوعاً وسطاً بينهما، كعصير المشمش مثلاً، أجل، هذا هو، عصير المشمش، سيكون هذا اختياراً مثالياً. فكر فرانسوا إن هي طلبت هذا النوع من العصير فلسوف يتزوجها. في تلك اللحظة بالذّات رفعت ناتالي رأسها عن البطاقة، كما لو أنها قد عادت من تفكير عميق، التفكير ذاته الذي قاد إليها هذا الغريب وجعله يجلس بمواجهتها:

Twitter: @ketab_n

– «سوف آخذ عصيراً»

– ؟

– «أعتقد عصير المشمش»

نظر إليها كما لو أن الأمر كان نوعاً من السطو على أفكاره.

وهي أيضاً، إن وافقت على الذّهاب والجلوس مع هذا الغريب، فهذا كونها قد وقعت فوراً تحت تأثير سحره. أحبّت فيه هذا المزيج من الحماقة والوضوح، سلوكٌ ضائع ومحيّر بين الممثل بيير ريشار ومارلون براندو. كان يتحلّى جسديّاً، بميزة تعجبها في الرجل: وهي نوعٌ من الحول الخفيف، خفيفٌ جداً ومع ذلك فهو مرئي. كان من المدهش أن تجد تفصيلاً كهذا عنده. ثم، هو يدعى فرنسوا، وقد أحبت دوماً هذا الاسم. كان أنيقاً وهادئاً كما الأفكار التي شكّلتها هي عن شخصيات الخمسينيات. ها هو يتحدث الآن بمزيد من الاسترخاء. كُسر حاجز الغموض بينهما، فلم يعد هناك لا انزعاج ولا توتر. خلال عشر دقائق كان المشهد الأول للتصادم في الشارع قد نسُي. كان لديهما الانطباع أنهما قد سبق والتقيا، وأنهما متواجدان مع بعضهما الآن، لأنهما كانا على موعد. حدث هذا ببساطة مثيرة للدهشة، بساطة شوشت على كل لقاءاتهما السابقة، حين كان الكلام مع الشخص الآخر يجب أن يأخذ نكهة مضحكة وظريفة، أو التّصنع وبذل جهدٍ معين للظهور بمظهر شخص جيد.غدا الوضوح بينهما مضحكاً تقريباً، كانت ناتالي تنظر إلى هذا الشاب الذي لم يعد غريباً عنها، بشكل راح فيه كل جزء صغير مجهول بينهما يختفي شيئاً فشيئاً من أمام ناظريها. حاولت أن تتذّكر إلى أين كانت ذاهبة في اللحظة التي التقت به. لم يعد هذا

Twitter: @ketab_n

واضحاً، فهي ليست من ذاك النوع الذي كان يتجول على غير هدى. ألم تكن ترغب في السير على خطى رواية ***كورتازار***[3] تلك التي كانت قد انتهت من قراءتها منذ فترة قصيرة؟ ها هو الأدب يجثم هاهنا الآن فيما بينهما. أجل، هذا هو الأمر، كانت قد قرأت كتاب «***المربعات***» للكاتب كورتازار، وأحبت بالأخصّ تلك المشاهد حين يحاول الأبطال فيها الالتقاء مصادفة في الشارع، بينما هم يجوبون مسالك ولدت من *جملة متشردٍ*[4]. عندما حلّ المساء، راجع فرنسوا وناتالي جدول أعمالهما كي ينسقا الوقت الذي يستطيعان فيه العودة للقاء مرة أخرى، والأوقات التي كان بإمكانهما التصادف فيها من جديد.

إلى هنا كانت هي ذاهبة: لتعيش في رواية.

-3-

الكتب الثلاث المفضلة عند ناتالي:

حسناء الإقطاعي، ألبير كوهين.

العشيق، مرغريت دورا.

الانفصال، دان فرانك.

---

[3] خوليو كورتازار: كاتب أرجنتيني من أشهر رواياته المربعات.

[4] Clochard: شخص متشرد يعيش على هامش المجتمع.

Twitter: @ketab_n

- 4 -

كان فرنسوا يعمل في الإدارة المالية، وخمس دقائق بصحبته كانت كافية لمعرفة أن هذا العمل غير ملائم لميل ناتالي للاقتصاد. هناك أيضاً نوع من دكتاتورية ملموسة للأمور المجرّدة التي تخالف باستمرار ميولنا ورغباتنا. بقولنا هذا، كان من الصعوبة بمكان التخيّل ما الذي كان بإمكانه أن يعمل غير العمل الذي كان يمارسه. فبرغم رؤيته ذاك الرجل الخجول عند التقائه بناتالي، إلا أنه كان رجلاً مفعماً بالحيوية، طافحاً بالأفكار والطاقة، متّقد الذّهن لدرجة تمكنه من امتهان أي مهنة كانت حتى ولو كان ممثلاً للعلاقات التجارية باللباس الرسمي وربطة عنق. نستطيع أن نتخيله بشكل أفضل كرجل يحمل حقيبة، يشدّ على الأيدي وهو يأمل أن يشدّ على الرقاب. كان يمتلك السحر المثير لهؤلاء الأشخاص الذين بمقدورهم بيعك أي شيء يريدونه. بصحبته، قد نرغب في الذهاب للتزلج في الصيف، والسباحة في الشتاء في بحيرات إيسلاندا. إنه من نوعية هؤلاء الرجال الذين يصطدمون بامرأة لمرة واحدة وهم في طريقهم، و بالمصادفة تكون هي المرأة الأفضل. كان يبدو كمن بإمكانه النجاح في كل شيء، إذاً، لم لا يكون هذا النجاح في عالم المال؟ كان واحداً من هؤلاء المبتدئين في عالم البورصة الذي يلعب بالملايين كجزء من ذكرياته الحديثة لآخر

Twitter: @ketab_n

شوط من لعبته في المونوبولي[5]، لكن مجرد مغادرته مصرفه يتحول فوراً إلى رجل آخر، وتبقى هموم مؤشر بورصة باريس في مكانها.

لم تمنعه مهنته من ممارسة هواياته. كان يهوى لعبة البازل أكثر من أي شيء آخر. قد يبدو هذا غريباً، لكن لا شيء كان باستطاعته أن يهدئ من توتره غير قضاء بعض الساعات من أيام السبت في تجميع آلاف القطع. كانت ناتالي تستمتع برؤية خطيبها جالساً القرفصاء في الصالون، وخلال المشهد الصامت كان ينهض فجأة ويصيح: «هيا تعالي، سنخرج!» حسناً، هناك شيء آخر تجدر الإشارة إليه، وهو أنه لم يكن مولعاً بالتبدلات. كان عاشقاً للفواصل، للانتقال الفوري من الصمت إلى الجنون مباشرة.

كان الوقت يبدو مع فرانسوا وكأنه يمرّ بسرعة جنونية. كان بإمكاننا الشعور أن لديه القدرة على القفز فوق الأيام، على خلق أسابيع باروكية[6]، دون وجود لأيام الخميس. بالكاد كانا قد التقيا، وها هما الآن يحتفلان بمرور عامهما الثاني. انقضى عامان دون أية مشاكل تذكر، مما خيّب أمل كل محبي التحطيم. كانوا ينظرون إليهما كمن يتأمل بإعجاب بطلاً ما. كانا الأولين في الحب. واصلت ناتالي دراستها بنجاح، محاولة في الوقت نفسه التخفيف قدر المستطاع، من أيام فرانسوا العادية. وبما أنها قد اختارت رجلاً أكبر سناً منها بقليل، ويملك مركزاً مهنياً جيداً، استطاعت أن تترك بيت العائلة. لكن عدم رغبتها في العيش عالة عليه، جعلها

---

[5] مونوبولي: لعبة إستراتيجية رأس مالية تتضمن العمل في الربح والخسارة.

[6] الفن الباروكي: أسلوب ممتلئ بالزخارف والحركة.

Twitter: @ketab_n

تقرر أن تعمل في بعض أمسيات الأسبوع كمرشدة لأماكن الجلوس في إحدى المسارح. كانت سعيدة في هذا العمل الذي يعوّض قليلاً عن الأجواء الصارمة للجامعة، تأخذ مكانها في آخر الصالة بعد أن يجلس المشاهدون في أماكنهم، وتجلس لتشاهد المسرحية التي تكون قد حفظت كلماتها عن ظهر قلب، تُطرب لها، وتسابق الممثلين عليها، وتقوم بتحية الجمهور عندما كان يصفق عند نهاية العرض.

صارت تحفظ غيباً كلمات المسرحيات مما جعلها تحشو يومها بالكثير من الحوارات، تمسح الصالون وهي تموء أن الهرّة الصغيرة قد ماتت. في الأمسيات الأخيرة كانت تمثل مسرحية ***لورانزاسيو*** «لأفريد موسيه» رامية هنا وهناك عبارات وأقوال غير مترابطة كنوع من التشويش التام.

«تعال إلى هنا، الهونغروا[7] معه حق»

أو أيضاً: «من ذاك الذي في الوحل؟ من ذاك الذي يزحف في قصري وهو يصرخ هذا الصراخ المخيف؟».

هذا ما كان يسمعه فرانسوا في تلك الليلة التي كان يحاول فيها التركيز. طلب منها قائلاً: «هل باستطاعتك أن تكوني أكثر هدوءاً؟».

– بالطبع.

– «أنا على وشك تركيب بازل مهم جداً».

عندها سكتت ناتالي محترمة بذلك تعليمات خطيبها. يبدو هذا البازل مغايراً عن الآخرين، يبدو لوحة ذات خلفية بيضاء تلتصق

---

[7] الهونغروا: مقطع من مسرحية ألفريد موسيه

Twitter: @ketab_n

فوقها حلقات حمراء، حلقات تبدو وكأنها سوف تتكشف عن حروف في النهاية. إنها رسالة على شكل بازل. تركت ناتالي الكتاب الذي فتحته للتو كي تراقب التقدم الحاصل في هذا البازل. كان فرانسوا يلتفت من وقت إلى آخر نحوها. ها هو المشهد ينكشف تدريجياً ويظهر مغزاه. لم يبقَ غير بعض الأجزاء القليلة حتى يكون باستطاعة ناتالي أن تخمن رسالتها، رسالة مبنية بشكل دقيق، بواسطة بعض الأجزاء. نعم، كان باستطاعتها الآن القراءة بوضوح ما كان مكتوباً على اللوحة.

«هل تقبلين بي زوجاً؟»

- 5 -

منصة التتويج في بطولة العالم للبازل التي جرت في منسك بين 27 أكتوبر حتى الأول من نوفمبر عام 2008

جاء في ترتيب البطولة:

1-Ulirch Voigt من ألمانيا: 1464 نقطة

2-Mehmet Murat Sevim من تركيا: 1266 نقطة

3- Roger Barkan من أميركا: 1241 نقطة

Twitter: @ketab_n

- 6 -

وكي لا تكون هناك أية وسيلة لعرقلة هذه الميكانيكية الجميلة، نستطيع القول أن الاحتفال كان ناجحاً جداً. كان احتفالاً بسيطاً وناعماً. غير مفرط في الغرابة، وبعيداً في الوقت نفسه عن المألوف. كان هناك زجاجة من الشمبانيا لكل ضيف، وكان هذا عملياً جداً، وروح الدعابة حقيقية غير مصطنعة. يجب علينا الاحتفال بمراسم الزواج أكثر بكثير من احتفالنا بأعياد ميلادنا.هناك تسلسل هرمي للالتزام بالفرح، والزواج هو قمّة هذا الهرم، يجب علينا أن نبتسم وأن نرقص، وفي وقت متأخر من الليل، يجب إرسال المسنين للذهاب إلى النوم. ويجب ألا ننسى هنا أن ننوه إلى جمال ناتالي التي كانت قد رتّبت لظهورها بحركة تصاعدية، وهي تعتني منذ أسابيع بوزنها وهيئتها. كان التجهيز شديد الإتقان: فقد بدت في ذروة جمالها، وكان يجب تثبيت هذه اللحظة الفريدة، كما لحظة تثبيت أرمسترونغ للعلم الأميركي على سطح القمر. كان فرانسوا يتأملها بتأثر وقد ترسخت تلك اللحظة في ذاكرته هو، أكثر من أي شخص آخر. كانت زوجته أمامه، وكان يعلم تماماً أن هذه الصورة هي نفسها التي سوف تعبر نظره لحظة موته. لذلك كان في قمّة

Twitter: @ketab_n

سعادته. نهض للحال وأخذ الميكروفون، وغنى أغنية للبيتلز[8]، فقد كان مغرماً بأغاني جون لينون، وكان يرتدي بدلة بيضاء كتكريم له. لذلك فعندما رقص العروسان اختلط البياضُ بالبياض.

لسوء الحظ بدأ المطر ينهمر، وهذا ما أعاق المدعوّين من الخروج والتنفس تحت قبة السماء، وتأمّل النجوم المستأجرة في ذاك اليوم. في حالات كهذه، يحلو للناس الثرثرة ببعض الأقوال المأثورة المثيرة للضحك مثل: «زواج ماطر، زواج موفق». لماذا نصبح عرضة بشكل دائم لهذا النوع من الأحكام المثيرة للسخرية؟ بطبيعة الحال هذا غير مهم، فقد أخذت تمطر وأصبح الطقس كئيباً قليلاً، هذا كل ما في الأمر، لم يعد للأمسية نفس الحجم بعد أن بُتر منها أوقات التنفس تلك في الهواء الطلق. يشعر المرء بسرعة بالاختناق وهو يتأمل الأمطار وهي تزداد كثافة. يغادر البعض قبل الموعد المحدد، ويتابع البعض الآخر الرقص بالطريقة ذاتها حتى ولو كانت تثلج، ويواصل آخرون ترددهم. هل كان هذا بالفعل مهماً للعروسين؟ يأتي وقت في السعادة نشعر فيها أننا وحيدون بين الحشد. نعم، كان العروسان وحيدين في خضمّ دوامة من الأنغام وألحان الفالس. قال لها: يجب أن ندور بأقصى سرعة، ندور وندور حتى لا نعود نعرف أين نحن. لم تعد تفكر بشيء، للمرة الأولى كانت تعيش الحياة بكثافتها الفريدة من نوعها وشموليتها التامة: لحظة الوقت الحاضر.

---

[8] أغنية البيتلز: هنا، هناك، وفي كل مكان 1966 (الكاتب).

Twitter: @ketab_n

أمسك فرانسوا ناتالي من خصرها وقادها إلى الخارج. اجتازا الحديقة راكضين، وهي تقول: «أنت مجنون» بيد أنه كان نوعاً من الجنون جعلها مجنونة من الفرح. ها هما الآن مختبئان تحت الأشجار، مبتلان بالماء، في الليل تحت المطر. تمددا على الأرض التي أضحت موحلة، فأصبح بياض ثيابهما مجرد ذكرى. رفع فرانسوا ثوب زوجته، معترفاً أنه كان يفكر في هذا منذ بداية السهرة، ولو استطاع لقام بذلك وهما لم يزالا في الكنيسة، وهذا بدوره كان سيتحول إلى نوع من التمجيد لقولهما كلمة «نعم»، وها هو يحتفظ برغبته حتى هذه اللحظة. فوجئت ناتالي من قوة وصدق مشاعره فهي لم تكن تفكر في هذا منذ قليل. كانت تتبع زوجها محاولة التنفس بشكل صحيح كي لا تسمح لنفسها بالانجراف لفوضى كهذه. كانت رغبتها تضاهي أيضاً رغبة فرانسوا. شعرت بشهوة كبيرة في أن يأخذها الآن، في ليلتهما الأولى تلك، كزوج وزوجة. انتظرت، وانتظرت، وبدا فرنسوا كأنه يهتزّ في الهواء، كان في حالة من الطاقة المحمومة، نوع من التوق المطلق للاستمتاع. إنما، فقط، في اللحظة التي كان سيلج فيها، شعر وكأنه قد أصيب بالشلل، ربما كان هذا نوعاً من الضيق المشابه للخوف من سعادة مطلقة، من بهجة حيوية، لكن لا، لم يكن الأمر هكذا، بل كان شيئاً آخر، شيء ما قد أعاقه في تلك اللحظة ومنعه من المتابعة. «ماذا جرى؟» سألته ناتالي. أجاب: «لا شيء.. لا شيء، إنها فقط المرة الأولى التي أمارس فيها الحب مع امرأة متزوجة».

Twitter: @ketab_n

-7-

بعض من الأمثال المضحكة التي يتلذذ الناس بترديدها:
– تضيع منك امرأة، فتعثر على عشرة.
– من يرغب بالعيش سعيداً، ليعش بالخفية.
– امرأة ضحوك، امرأة سهلة المنال.

-8-

ذهبا في شهر عسل والتقطا الكثير من الصور ومن ثم قفلا راجعين، الآن، يتوجّبُ عليهما اجتياز المراحل الحقيقية للحياة. كانت ناتالي قد أنهت دراستها منذ ستة أشهر، حتى الآن، كانت قد استعملت حجّة التجهيز للعرس كي لا تذهب وتبحث عن عمل، فالتحضير للزواج يشبه نوعاً ما تشكيل حكومة بعد الحرب. ثم، ماذا عن المتعاونين؟ كان هناك الكثير من التعقيدات التي تبرر الوقت الذي لم تستخدمه إلا لفعل هذا. في النهاية لم تكن تلك هي الحقيقة ، فهي كانت ترغب فعلاً في إعطاء نفسها بعض الوقت، للقراءة، والتسكع، كما لو أنها كانت تعرف مسبقاً أن مثل هذه

Twitter: @ketab_n

الأوقات سوف لن تتكرر مرة أخرى، وأنها سوف تكون مأخوذة من قبل الحياة المهنية، وبالطبع، من قبل حياتها الزوجية.

لقد حان الوقت كي تذهب لإجراء المقابلات. فهمت بعد عدة محاولات بأن هذا لم يكن بالأمر السهل. هذه هي إذاً الحياة الطبيعية؟ كانت تفكر مع ذلك أن لديها شهادة معترف بها وبعض الخبرة لبعض التدريبات المهمة التي لم تكن تقتصر فقط على تقديم القهوة خلال فترة تصوير المستندات.

كان لديها موعد لوظيفة في شركة سويدية. فوجئت بالمدير العام يستقبلها، وليس مدير الموارد البشرية. اعتقدت أنه شكل من أشكال السيطرة والضبط في عملية التوظيف. كان هذا تفسيرها الشخصي بينما كانت الحقيقة أكثر نفعية من ذلك: فهذا المدير كان قد مرّ عرضاً في مكتب الموارد البشرية ورأى صورة ناتالي وأوراق ذاتيتها. بدت صورتها الشخصية غريبة. بالطبع، لم يكن بالإمكان إعطاء تقييم حقيقي لشكلها الجسدي. لكننا بالتأكيد لا نستطيع أن ننكر أنها كانت جميلة، لكن لم يكن هذا هو التفصيل الوحيد الذي استرعى انتباه المدير. بل كان شيئاً آخر، شيء لم يتوصل إلى تحديد هويته، شعور يشبه نوعاً ما إحساسه أنه أمام الحكمة، نعم، هذا ما شعر به، وجد أن هذه المرأة تبدو متزنة.

لم يكن شارل دولامان سويدياً بالمعنى الصحيح للكلمة، لكن كان يكفي الدخول إلى مكتبه كي نتساءل إن لم يكن لديه الطموح كي يصبح ذلك، بالطبع، كي ينال إعجاب عملائه. فوق إحدى

Twitter: @ketab_n

مفروشات IKEA[9] باستطاعتنا رؤية صحن صغير فيه بعض القطع من ذاك الخبز الذي يتفتت بسرعة.

بادرها قائلاً:

– «درست مسيرتك المهنية بكثير من الاهتمام....».

– «نعم...؟».

– أنت تلبسين محبساً، هل أنت متزوجة؟».

– «أوه... نعم».

ساد الصمت. كان شارل قد قلّب عدة مرات أوراق ذاتية تلك المرأة، ولم يكتشف أنها متزوجة. في اللحظة التي قالت فيها «نعم» عاد ليلقي نظرة أخرى فوق الأوراق. كانت فعلاً قد كتبت «متزوجة»، كما لو أن الصورة قد شوشت في عقله الوضع الشخصي لهذه المرأة. في النهاية، هل هذا مهم حقاً؟ يجب عليه متابعة المقابلة كي لا يترك المجال لأي شعور بينهما بالارتباك.

تابع قائلاً:

– «هل تنوين أن تنجبي أطفالاً؟».

– «ليس الآن». أجابت فوراً دون أي تردد.

قد يبدو هذا السؤال طبيعياً عند مقابلة توظيف امرأة شابة متزوجة حديثاً، لكنها شعرت بشيء ما مختلف، دون أن تستطع تعريف هويته. كان شارل قد توقف عن الكلام وراح يتأملها، نهض أخيراً، وأخذ قطعة من البسكويت:

---

[9] ماركة لأكثر المفروشات العملية الاسكندنافية.

Twitter: @ketab_n

– «هل تريدين قطعة من الكريسبرول[10]».

– «كلا شكراً».

– «بل يجب أن تأخذي».

– «هذا لطف منك، لكني لست جائعة».

– «يجب أن تعتادي على هذا الأمر، نحن لا نأكل هنا إلا من هذا».

– «هل هذا يعني...أنني...؟».

– «نعم».

- 9 -

كان يجتاح ناتالي في بعض الأحيان إحساسٌ بأن الناس يحسدونها على سعادتها. كان إحساساً غامضاً، لم يكن هناك شيءٌ ملموسٌ بل فقط مجرد شعور عابر، لكنها مع ذلك أحست به، من خلال التفاصيل والابتسامات التي كانت بالكاد ملحوظة لكنها كانت تقول الكثير، عن طريق النظر. لم يكن باستطاعة أحد أن يتصور مدى خوفها من هذه السعادة والخوف من احتوائها على خطر التهديد بمصيبة ما، يحدث لها أن تستعيد هذا الخوف لحظة قولها «أنا سعيدة»، كنوع من التطيّر، نوعٌ من ذكريات كل تلك

---

[10] Krissprolls: خبز قاسي صغير مالح يشبه التوست.

Twitter: @ketab_n

اللحظات التي مالت فيها الحياة نحو الجانب السيئ.

شكّل لديها الأصدقاء والأهل الذين تواجدوا في حفل الزواج ما يمكن القول عنه *بالحلقة الأولى للضغط الاجتماعي*، ضغط كان يطالبها بإنجاب طفل. هل يجب عليهم الضجر من حياتهم لهذه الدرجة كي يفتّشوا عن الإثارة في حياة الآخرين؟ هكذا هو الأمر دائماً، فنحن نعيش تحت سيطرة رغبات الآخرين. لم يرغب فرانسوا وناتالي أن يصبحا حلقة من مسلسل محيطهم. في الوقت الحالي كانا مسرورين لفكرة وجودهما وحيدين في العالم، ضمن القالب الأكثر كمالاً للراحة العاطفية.

مذ التقيا، عاشا ضمن هامش من الحرية المطلقة. عاشقين للسفر، مستفيدين من أي وقت ـ ولو قليل ـ من عطلة نهاية الأسبوع المشمسة، جابا أوربا كلها بعفوية رومانطيقية. كان بإمكان الذين يشهدوا عشقهما أن يروهما في روما، ليزبون، أو برلين. كان يتملكهما الإحساس أنهما كلما تشتتا، كلما توحدا أكثر. هذه الرحلات ولدّت لديهما أيضاً نوعاً من الشاعرية الحقيقية. كانا يستمتعان بالأمسيات التي يستعيدان فيها طريقة لقائهما، ويستذكران التفاصيل بشغف، ممتنين للقدر الذي جمعهما مصادفة. كانا في الواقع يعشقان أسطورة حبهما، يرددانها، كما الأطفال الذين نردد ونعيد عليهم دون كلل القصّة ذاتها.

إذاً بالتأكيد، كان باستطاعة سعادة كهذه إثارة المخاوف.

لم تكن قد دخلت في حياتهما بعد المشاكل العادية للحياة اليومية. بانهماكهما أكثر فأكثر بالعمل، كانا يتحينان الفرص لمشاهدة بعضهما أثناء فترة الاستراحة، يتناولان وجبة الغداء معاً،

Twitter: @ketab_n

حتى ولو بشكل سريع. غذاء «على الماشي»[11] كما كان يقول فرانسوا، وكانت ناتالي تحب هذا التعبير، كانت تتخيل كما لو أنها لوحة عصرية تمثل زوجين يتناولان الغذاء فوق إصبع، مثلما هناك غذاء فوق العشب. قالت في نفسها أنها لوحة كان من المفروض على دالي رسمها، أحياناً هناك بعض التعابير التي نستظرفها ونحبها، والتي نجدها رفيعة، بينما يكون الذي قالها، غير مدرك لشيء.

أحبّ فرنسوا هذا الاحتمال للوحة لدالي تلك، كان يُعجب من إمكانية زوجته على الابتكار، وحتى على تغيير تاريخ الفن. كان ذلك شكلاً من أشكال البساطة المؤكدة. يهمس أنه يشتهيها الآن، يشتهي أخذها إلى مكان ما، إلى أي مكان، لكن هذا لم يكن ممكناً، فالآن يجب عليها مغادرة المنزل، إذن سوف ينتظر حتى المساء ليحضنها بشغف تراكم عبر ساعات وساعات من الحرمان. لم يبدُ أن حياتهما الجنسية قد تأثرت بمرور الوقت، وهذه من الأمور النادرة، فقد بقي بينهما أثر دائم من آثار اللقاء الأول.

حاولا أيضاً الاحتفاظ قدر الإمكان بحياة اجتماعية، بالذهاب إلى المسرح، بالقيام بزيارات فجائية للأجداد، حاولا ألا ينغلق بعضهما على البعض الآخر، فيقعا في الضجر. وهكذا مضت السنون، وبدا كل شيء سهلاً بسيطاً، فيما بدا الآخرون كأنهم يبذلون الجهد الكثير لأجل ذلك. لم تكن ناتالي تفهم هذا التعبير: «لإنجاح الزواج

---

[11] Sur le pouce: ترجمتها الحرفية: فوق الإصبع. وهي تعني رفع الإصبع للدلالة على وقفة استراحة صغيرة جداً.

Twitter: @ketab_n

يجب الاجتهاد على ذلك» كانت الأمور بالنسبة إليها إما أن تكون بسيطة أو لا تكون، أما العمل على إنجاحه فذلك لا ينفع. كان من السهل التفكير بتلك الطريقة عندما تدور الحياة بشكلها العادي، دون أي مشاكل تذكر في الحياة الزوجية. لكن كي نكون واقعيين، يجب القول أن شيئاً من هذا كان يحصل في بعض الأحيان، لكننا نتساءل إن لم يكونا يتشاجرا فقط من أجل متعة التصالح بعد الشجار. إذن، ما الأمر؟ كان الأمر هو أن بإمكان نجاح كهذا أن يتحول إلى أمر مثير للقلق، فالزمن كان يمرّ فوق هذه الحياة السهلة، كما فوق تلك القدرة النادرة لمهارة للأحياء.

وجهات السفر القادمة لناتالي وفرنسوا
برشلونة ـ ميامي ـ لابول[12]

- 10 -

يكفي أن نتنفس كي يمضي الوقت وها قد مضى خمس سنوات على عمل ناتالي في الشركة السويدية، خمس سنوات من النشاط من كل الأصناف، من المجيء والذهاب في الممرات والمصاعد. حركة تعادل المسافة القائمة بين باريس وموسكو. خمس سنوات مصحوبة باستهلاك ألف ومئتا واثني عشر فنجاناً من القهوة، منها ثلاثمائة

[12] مصيف في فرنسا على الأطلسي.

Twitter: @ketab_n

وأربع وعشرون فنجان خلال الأربعمائة وعشرون موعداً منظماً مع زبائن. كان شارل سعيداً جدّاً لاعتبارها من عداد أقرب مساعديه، لم يكن نادراً أن يرسل في طلبها إلى مكتبه فقط كي يهنئها. بالطبع كان يفضّل فعل ذلك بالأخص في المساء، عندما يغادر الجميع، وقطعاً لم يكن يحدث هذا بشكل فظ، فقد كان يكنّ لها الكثير من المودة، ويقدر تلك اللحظات التي يقضيانها وحيدين معاً، وطبعاً كان يحاول جاهداً خلق نوع من الأرضية الملائمة لغرابته تلك. لم يكن أمرُ كهذا يخفى حتى على أكثر النساء سذاجة، لكن ناتالي كانت تعيش ضمن الهالة الغريبة للزواج الأحادي، للحب المتسامح، ذلك النوع من الحب الذي لا يغيّب فقط كل الرجال الآخرين، بل أيضاً أية نيّة غير صافية لمحاولة إغرائها. كان شارل يضيّع وقته سدىً ويفكر بفرانسوا هذا كما لو أنه أسطورة، ربما أيضاً طريقتها تلك في عدم التأثر على الإطلاق بمثل هذا النوع من الإغراء، شكّل لديه نوعاً من التحدّي، فلابد وسيأتي يوم يتوصّل فيه إلى خلق أرضية أخرى مضطربة بينهما، ولو بحدها الأدنى. في أحيان أخرى كان يغيّر جذرياً من مواقفه، وينـدم لأنه وافق غلى تعيينها، فقد أنهكه التأمل اليومي لتلك الأنوثة المتعذّر الوصول إليها.

علاقة ناتالي مع المدير، والتي كان يقيّمها الآخرون بالعلاقة الخاصّة، كانت تخلق نوعاً من التوتر. وقد حاولت جهدها تطويعها، وذلك في عدم الخوض قدر الإمكان في التفاصيل الصغيرة لأعمال المكتب. وإن كانت قد التزمت بحدودها مع شارل، فذلك للأسباب ذاتها، كي لا تنزلق في الدور القديم لفكرة الاصطفاء

Twitter: @ketab_n

الشخصي. ربما فرضت عليها لباقتها وهالتها مع رب العمل، أن تكون أكثر التزاماً. هذا ما كانت تشعر به دون أن تعرف إن كان هذا مبرراً أم لا. اتفق الجميع على توقّع مستقبل كبير في الشركة لتلك الشابة اللامعة، النشيطة و المجدّة. استفاد المساهمون السويديون مرات عديدة من مبادراتها الممتازة. كانت الغيرة التي أحدثها نجاحها تظهر بشكل ضربات خفيفة، لم تتعدَّ المحاولات للنيل من ثقتها بنفسها. لكنها لم تكن تشتكي ولم تكن من ذاك النوع الذي يتأوه في المساء، أثناء تواجدها مع فرنسوا. كانت تلك أيضاً طريقتها للتعبير على أن سيرك الطموحات الصغيرة تلك، لا يحتمل أكثر من هذه الأهمية. هذه القدرة في جعل المشاكل تنزلق منها دون أن تؤثر فيها، كان دليلاً على قوتها. ربما شكلت مهارتها سبباً في عدم ترك الفرصة للآخرين كي يلامسوا مكامن ضعفها.

-11-

المسافة بين باريس وموسكو
2478 كيلو متر

Twitter: @ketab_n

-12 -

غالباً ما تكون ناتالي منهكة في نهاية الأسبوع، وكانت تحب أن تقرأ يوم الأحد، وهي مسترخية فوق أريكة، تتأرجح بين الصفحة والحلم، لحظة يسرقها النوم ويأخذها نحو القصص الخيالية، رامية بغطاء فوق قدميها. ماذا بوسعنا قول أكثر من ذلك: آه نعم، كانت تحب أن تجهز إبريقاً من الشاي، تشرب منه عدّة كؤوس، برشفات قليلة، كما لو كان هذا الشاي نبعاً لا ينضب.

في يوم الأحد ذاك، حين حصل الحادث، كانت تقرأ رواية روسية طويلة، لكاتب أقل شهرة من تولستوي أو دوستوفسكي، يحثّ المرء فيها على التفكير في الظلم الواقع على الأجيال القادمة. كانت معجبة بخمول بطل الرواية، وعجزه عن التصرف لخلق شيء ما ذي قيمة في حياته اليومية. كان هناك نوع من الحزن في ذاك الضعف، وكما بالنسبة للشاي، كذلك بالنسبة للروايات، فقد كانت تفضلها ذات نفس طويل. مرّ فرانسوا بجوارها وسألها: «ماذا تقرئين؟» أجابت بأنه كتاب لكاتب روسي، لكنها لم تعطِ توضيحاً أكثر من ذلك، فقد بدا لها أن فرنسوا لم يطرح السؤال إلا كي يسايرها بطريقة آلية. فاليوم، هو يوم الأحد، وهي تحب القراءة،

Twitter: @ketab_n

بينما هو يفضّل الجري. كان يرتدي الشورت الذي كانت تراه غريباً ومضحكاً، لم تكن تعلم أنها كانت على وشك رؤيته للمرة الأخيرة. كان يتقافز في كل مكان، كانت لديه تلك الطريقة في الرغبة دوماً في التحمية في صالون منزلهما، والنفخ بقوّة قبل أن يغادر البيت، كمن يريد أن يترك وراءه الكثير من الفراغ. وطبعاً كان غالباً ما ينجح في هذا الأمر.

قبل أن يغادر ينحني فوق زوجته، ويهمس في أذنها بشيء ما، والأمر الغريب، أنها سوف تكون عاجزة بعدها عن تذكر تلك الكلمات. تتطاير أحاديثهما المتبادلة في الهواء، وتغرق بعدها ناتالي في نوم عميق.

عندما استيقظت، وجدت صعوبة في تقدير المدة التي قضتها في النوم. هل كانت عشر دقائق أم ساعة كاملة. صبت لنفسها القليل من الشاي الذي لم يزل محتفظاً بحرارته، كان هذا عبارة عن تحديد للوقت. يبدو أن لا شيء قد تغيّر. كانت هي أيضاً في الوضعية نفسها قبل إغفاءتها.. نعم كل شيء كان متماثلاً. رنّ الهاتف أثناء هذه العودة إلى لحظة التماثل تلك، واختلط صوت الرنين مع بخار الشاي بتداخل غريب للأحاسيس. رفعت ناتالي السماعة. بعد لحظة من ذلك، انقلبت حياتها ولم تعد كما كانت، وبطريقة لا شعورية وضعت «علامة الصفحات» في كتابها، وهرعت تركض للخارج.

Twitter: @ketab_n

-13-

عند وصولها إلى بهو المستشفى، لم تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل. بقيت للحظة طويلة جامدة بدون حراك. أشاروا إليها أخيراً في قاعة الاستقبال أين يتواجد زوجها. هرعت إليه، فوجدته ممدّداً دون حراك. فكرت: يبدو أنه نائم، فهو لا يتحرك أبداً في الليل أثناء نومه، وهنا، في هذه اللحظة، كانت ليلة مثل بقية الليالي.

– «ما هي فرص نجاته؟» سألت ناتالي الطبيب.

– «ضئيلة جدّاً».

– «ماذا يعني ضئيلة جدّاً؟ هل يعني أنها معدومة؟ الأفضل أن تقول لي في هذه الحالة أن لا فرصة أمامه للحياة؟».

– «لا أستطيع قول ذلك، سيدتي. فرصة نجاته ضئيلة، لكننا لا نعرف أبداً».

– «بلى، يجب أن تعرفوا، عملكم هو أن تعرفوا» صرخت ناتالي بتلك الكلمات بكل قوتها، ولعدّة مرّات متتالية، بعدها، توقفت تماماً عن الكلام. ثبتّت نظرها في وجه الطبيب، هو أيضاً كان جامداً دون حراك، ومتشنّجاً. كان قد شاهد العديد من المشاهد المأساوية، إنما الآن، وهنا، شعر بأن هذا المشهد يفوق كل المشاهد المأساوية الأخرى، دون أن يعرف تفسيراً للأمر.

Twitter: @ketab_n

راح يتأمل وجه هذه المرأة الملتوي من الألم، الغير قادرة على البكاء، وقد جفّت عيناها من الدمع. تقدّمت نحوه، ضائعة وذاهلة، قبل أن تنهار فاقدة الوعي.

عندما استعادت وعيها، رأت أهلها وأهل فرانسوا. منذ مدة قصيرة كانت تتمدّد وهي تقرأ، وها هي الآن بعيدة عن منزلها. عاد الواقع لتركيب أجزائه. تمنّت لو كان باستطاعتها أن تقوم بخطوة إلى الخلف وهي نائمة، خطوة إلى الخلف في يوم الأحد هذا. لكن دون فائدة. لم يكن هذا بالإمكان، هذا ما كانت لا تتوقف عن ترديده بابتهال هذياني. شرحوا لها أن فرانسوا في «السبات» وبأن لا شيء قد ضاع، لكنها كانت تشعر تماماً أن كل شيء قد انتهى. كانت تعلم، لكنها لم تكن تملك القوّة كي تقاوم. وما الفائدة من ذلك؟ هل سيمدّون من عمره أسبوعاً آخر، وبعد؟ لقد رأته، رأت سكون حركاته، لا يمكن العودة إلى الحياة بعد جمود كهذا، بل سنبقى على هذه الوضعية إلى الأبد.

أعطوها مهدئات. كان الجميع من حولها منهاراً، ومطلوب منهم الكلام، مطلوب منهم أن يدعموها ويشجّعوها، وقد كان هذا فوق طاقتهم.

– «أريد البقاء قربه، أريد الاعتناء به».

– «كلا، هذا لن يفيد في شيء. من الأفضل أن تعودي إلى البيت، وترتاحي قليلاً» قالت لها والدتها.

– «لا أريد أن أرتاح. أريد البقاء هنا، يجب أن أبقى هنا». لحظة قالت ذلك كانت على وشك الإغماء. حاول الطبيب إقناعها أن تتبع والديها. سألته:

Twitter: @ketab_n

– «لكن ماذا لو استيقظ ولم أكن قربه؟» خيّم عندها صمت ثقيل، فلا أحد كان واثقاً من استيقاظه. حاولوا، بشكل مخادع، أن يطمئنوها:

«سيعلمونك فوراً لحظة استيقاظه، لكن الآن، من الأفضل لك أن ترتاحي قليلاً».

لم تجب ناتالي.

راح كل واحد منهم يدفعها للاستلقاء، واتخاذ الوضعية المستوية. اقتنعت أخيراً بالذهاب مع أهلها. جهّزت لها والدتها حساءً لم تستطع تذوقه. ابتلعت من جديد قرصينن من الدواء وارتمت فوق سريرها في غرفتها، غرفة طفولتها. هذا الصباح كانت لم تزل امرأة، وها هي الآن تنام كما الطفلة الصغيرة.

-14-

التعابير المحتملة، التي قد يكون فرانسوا همس بها قبل مغادرته لممارسة رياضة الجري.

– أعشقك.

– أعبدك.

– بعد الرياضة، الاسترخاء والراحة.

– ماذا سنأكل هذا المساء؟

Twitter: @ketab_n

– أتمنى لك لحظات طيبةً في القراءة حبيبتي.
– أتشوّق للعودة كي أراك.
– لا نيّة لي في الهمس.
– هل حقّاً لابد لنا من تناول العشاء مع برنارد ونيكول.
– يجب عليّ أن أقرأ أنا الآخر كتاباً.
– يجب أن أحرّك قدميّ اليوم.
– الليلة، سوف نمارس الحب.

-15-

بعد بضعة أيام من الحادثة، مات فرانسوا. كانت ناتالي ترزح تحت وطأة حالة أخرى متبلّدة المشاعر من كثرة المهدئات. لم تتوقف عن التفكير في اللحظات الأخيرة التي قضياها معاً. كان هذا فعلاً شيئاً غامضاً وغير مفهوم. كيف لسعادة مثالية كهذه أن تنهار هكذا فجأة؟ تنتهي فجأة عند المنظر الهزلي لرجل يتقافز في الصالون، ثم تلك الهمسات الأخيرة، التي لن تتذكّرها أبداً، ربما لم يكن قد همس، بل فقط، اكتفى بالنّفخ على رقبتها.

منذ اللحظة التي خرج فيها فرانسوا من البيت، تحوّل بالتأكيد إلى مجرّد طيف، شكل إنساني بالطبع، لكنه لا يأخذ شكلاً إلا في الصمت، بما أن الموت كان قد أرخى بثقله وانتهى.

عند مراسم الدفن، لم يغب أحد. تواجد الجميع في المكان الذي

Twitter: @ketab_n

قضى فيه فرانسوا طفولته. تصورت أنه ربما كان سيسعد بوجود كل هذا الحشد. إنما لا. فالتفكير بهذا النوع من الأمور كان عبثيّاً. كيف بإمكان شخص متوفى أن يسعد بأي شيء، كائناً من كان؟ ها هو الآن على وشك أن يتحلل داخل أربعة جدران خشبية، فكيف بإمكانه أن يكون سعيداً؟

مّر في تفكيرها وهي تسير خلف النعش، محاطة بأقربائها، تفكير آخر: ها هم المدعوون ذاتهم الذين كانوا موجودين خلال حفلة زفافها. نعم، كلّهم كانوا هنا، إنه احتفال مماثل، ها هم بعد عدّة سنوات يلتقون من جديد، والبعض منهم كان يرتدي اللباس ذاته، أخرجوا الثوب الأسود الوحيد الذي كانوا يملكونه، والمناسب طبعاً للمناسبتين، أي للفرح كما للحزن. فقط، كان هناك اختلاف وحيد وهو الطقس. فقد كان الطقس مشمساً اليوم، لا بل نستطيع القول أنه تقريباً حار، حرارة تفوق الحد بالنسبة ليوم من أيام شباط: أجل فالشمس لم تتوقف عن الإشراق، أحرقت ناتالي عينيها لكثرة ما نظرت إليها وهي تتأملها، وقد تشوشت رؤيتها ضمن هالة من الضوء البارد.

وضعوه في القبر، وأهالوا فوقه التراب، وانتهى كل شيء.

بعد مراسم الدفن رغبت ناتالي بشدّة بالبقاء وحدها، لم تكن تريد العودة مع والديها، لم تعد تتحمل نظرة الشفقة عليها، لم تعد ترغب إلا في الاختباء تحت الأرض، تغلق عليها وتعيش داخل قبر. اصطحبها إلى منزلها بعض الأصدقاء في سيارتهم، لم يستطع أحد أن يتفوّه بكلمة طوال مسافة الطريق. اقترح ذلك الذي كان يقود

Twitter: @ketab_n

السيارة أن يضع شيئاً من الموسيقى، لكن ناتالي طلبت منه أن يغلق المذياع. كان الوضع غير محتمل، فكل نسمة هواء كانت تذكّرها بفرانسوا، كل نفحة كانت صدى لذكراه، لمزحة، لضحكة، لابتسامة. أدركت أن الوضع سوف يكون رهيباً. خلال سبع سنوات قضياها معاً، كان لدى زوجها الوقت الكافي كي يبعثر نفسه وينتشر في كل مكان، تاركاً أثراً ما عند كل نفس من أنفاسها. أدركت في تلك اللحظة، أن أي شكل من أشكال الحياة القادمة لن يكون باستطاعته جعلها تنسى موته.

ساعدها أصدقاؤها في نقل أغراضها إلى البيت، بيد أنها رفضت أن يدخلوا معها.

– لن أعرض عليكم البقاء، فأنا متعبة.

– أتعدينا أن تتصلي بنا لأي سبب كان؟

– نعم.

– هذا وعد؟

– نعم، وعد.

عانقتهم، قبّلتهم، وشكرتهم. لكونها وحيدة، لا أحد غيرها كان سيستطيع تحمّل الوحدة في لحظة كهذه. لكن ناتالي كانت تحلم بها، ومع ذلك، كان الوضع يزداد في عدم الاحتمال، لا امحتملاً آخر. كانت تتقدّم نحو غرفة الجلوس حين ظهر كل شيء أمامها ثابتاً في مكانه لم يتغيّر، لا شيء كان قد تحرّك. لم يزل الغطاء الذي كان يغطيها فوق الكنبة على حاله، وإبريق الشاي فوق الطاولة الصغيرة المنخفضة، مع الكتاب الذي كانت تقرأ فيه. وقع

Twitter: @ketab_n

نظرها فوراً على العلامة التي وضعتها داخل الكتاب الذي كان قد قُسم إلى قسمين. كانت قد قرأت القسم الأول عندما كان فرانسوا لم يزل على قيد الحياة، وعند الصفحة 321 كان فرنسوا قد فارق الحياة. ما العمل الآن؟ هل ستستطيع بعد الآن القراءة في كتاب قُطع بموت زوجها؟.

-16 -

لا أحد يستمع لهؤلاء الذين يعبّرون عن رغبتهم في البقاء وحيدين ولا أحد يصدقهم، فالرغبة في الوحدة بالنسبة إليهم، هي بالتأكيد نوع من النزعة المرضية. حاولت ناتالي جاهدة أن تُطمئن الجميع، رغبوا في المجيء لرؤيتها واستفقادها، وهذا ما كان يجبرها على العودة إلى الكلام، لكنها لم تكن تعرف ماذا ستقول. كان ينتابها الإحساس أنها يجب أن تعود إلى البدء من الصفر، حيث تستعيد تلّقيها اللغة. ربما كان الجميع محقّين في الواقع، في إرغامها على أن تكون اجتماعية، ولو بشكل بسيط، إرغامها على الاغتسال، على ارتداء ملابسها، وعلى استقبال الأصحاب. كانت مداركها تتبدّل فتصبح ذات وضوح مخيف. كانت تتخيّل ما يشبه الغرفة الصغيرة للأزمة، تدار فيها المأساة بمساعدة سكرتيرة، وبالطبع لم تكن تلك السكرتيرة غير والدتها، تسجّل كل شيء فوق

Twitter: @ketab_n

مخطط عمل عملاق بشكل يُسهّل التمييّز فيه بين الزيارات العائلية وزيارات الأصدقاء. كانت تسمع أعضاء طاقم المساندة تلك، يتحدّثون فيما بينهم، وهم يحصون عليها أقل تحركاتها:

«إذاً كيف حالها؟» «ماذا تفعل؟» «ماذا تأكل؟».

كان لديها شعور أنها قد تحولت فجأة إلى مركز العالم، بينما اختفى عالمها الخاص بها، ولم يعد له وجود؟

من بين الزائرين، كان شارل الأكثر حضوراً، يمرّ عليها كل يومين أو ثلاثة. وكانت هذه ـ بحسب رأيه ـ الطريقة المثالية لجعلها على تواصل دائم مع الوسط المهني. كان يحدثها عن تطور الملفات الحالية، وكانت تنظر إليه على أنه أحد المعتوهين. فماذا سيفيدها إن كان الاقتصاد الصيني الخارجي يعاني من أزمة في الوقت الحالي؟ هل باستطاعة الصينيين أن يعيدو لها زوجها؟ كلا، حسناً إذن، فلا فائدة ترتجى من ذلك.

كان شارل يشعر تماماً أنها لا تصغي إليه، لكنه كان يعرف أنه، شيئاً فشيئاً، لابد وأن هذا سوف يثمر، وأنه كان يُسربّ فيها، كما الحقن البطيء، نقطة نقطة، عنصراً من عناصر الواقع، وأن الصين وحتى السويد نفسها، ستعيدان تشكيل أفق ناتالي مرة أخرى. كان يجلس بالقرب منها ويتحدّث إليها قائلاً:

– «بإمكانك العودة متى تشائين إلى العمل. أريدك أن تعرفي أن المؤسسة كلها تدعمك».

– «شكراً، هذا لطفٌ منك».

– «وتعرفين تماماً أن باستطاعتك الاعتماد عليّ».

– «شكراً».

Twitter: @ketab_n

– «عن جد، اعتمدي عليّ».

لم تفهم لماذا بعد وفاة زوجها راح يتحدث معها بلغة الألفة، بضمير المفرد ـ أنت ـ وليس بضمير الجمع، ما الذي كان يعنيه بذلك؟ لكن لمَ البحث عن مغزى هذا التغيير؟ فهي لم تكن تملك القوة لفعل ذلك. ربما كان يشعر بنوع من المسؤولية، أو ليظهر لها أن لاشيء قد اهتزّ في حياتها، لكن بالرغم من ذلك فهذه الألفة بدت لها غريبة نوعاً ما. زيادة على ذلك، كان هناك بعض العبارات التي لا يمكن فيها استخدام كلمة «حضرتك» بدل كلمة «أنت»، مثل عبارات شدّ العزيمة، والتي يتوجّب علينا إلغاء الرسميات فيها كي نتمكّن من قولها، كما يجب أن نتمتّع بقدر من الحميميّة. لاحظت أن زياراته آخذة في الازدياد. حاولت أن تلفت نظره وتجعله يفهم ذلك. لكن عادةً، نحن لا نصغي إلى هؤلاء الذين يبكون. أصبح يأتي دوماً، وأصبح وجوده ضاغطاً. في إحدى الأمسيات وهو يتحدّث إليها وضع يده على ركبتها، لم تقل شيئاً، لكنها وجدت أنه يفتقد بشدّة إلى الرقة. هل كان يريد الاستفادة من حزنها كي يأخذ مكان فرنسوا؟ أتراه من ذاك النوع الذي يجوب ساحات الموت؟ ربما كان يقصد ببساطة جعلها تفهم أنه موجود بقربها إن هي احتاجت إلى الحنان، أو إن هي احتاجت لممارسة الحب، فليس مستغرباً أن يدفعنا قربنا من الموت نحو الدائرة الجنسية. إنما هنا، في حالتها هذه، لم يكن هذا ممكناً. كان من المستحيل عليها التفكير برجل آخر. لهذا فقد دفعت جانباً يد شارل الذي لابد قد شعر أنه تمادى كثيراً؟

Twitter: @ketab_n

«سوف أعود قريباً إلى العمل» قالت له دون أن توضّح تماماً ماذا تعني كلمة «قريباً» تلك.

-17-

لماذا اقتبس رومان بولانسكي رواية «***تيس دوبروفيل***» للكاتب توماس هاردي للسينما؟

لم يكن السبب في أنها رواية قُطعت قراءتها بسبب الموت. لكن شارون تات[13]، زوجة رومان بولانسكي، قبل مقتلها بوحشية من قبل شارل مانسون، كانت قد أشارت إلى زوجها بخصوص هذا الكتاب قائلة له أن هذه الرواية سوف تكون رائعة إن هي تحولت إلى عمل سينمائي.

عندما أنتج زوجها الفيلم بعد ذلك بعشر سنين، لعبت الدور الأساسي فيه نستازيا كينسكي، وكان عبارة عن إهداء لشارون تات.

---

[13] شارون تات: ممثلة سينمائية، زوجة المخرج بولانسكي وُجدت مقتولة بوحشية في شقتها.

Twitter: @ketab_n

-18 -

لم يرغب ناتالي وفرنسوا في إنجاب طفل فوراً، تركا الأمر كمشروع للمستقبل، هذا المستقبل الذي لم يعد موجوداً الآن، غدا طفلهما طفلاً افتراضيّاً، يمكن هنا للمرء التفكير أحياناً بكل هؤلاء الفنانين الذين يموتون وهو يتساءل ماذا كان يمكن أن ينجزوا إن هم بقوا على قيد الحياة؟ ما الذي كان يمكن أن يؤلف مثلاً جورج لينون عام 1992 لو لم يتوفَ عام 1980؟ والشيء بالشيء يذكر: كيف كان يمكن أن تصير عليه حياة هذا الطفل الذي لم يولد قط؟ يجب التفكير بكل تلك الأقدار التي تخفق وتنتهي عند ضفاف إمكانية حدوثها.

اعترتها لأسابيع وأسابيع حالة قريبة من الجنون، حالة تشبه إنكار الموت، فاستمرت في تخيل الحياة اليومية كما لو أن زوجها لم يزل هنا. كان بإمكانها كتابة بعض الكلمات، تتركها فوق طاولة الصالون لتلفت انتباهه في الصباح، قبل أن تذهب للتنزّه. تمشي لساعاتَ، تحدوها رغبة واحدة فقط: أن تتوه بين الحشد. يصادف لها أيضاً أن تدخل الكنائس،هي التي لم تكن قط مؤمنة، وكانت متأكدة أنها لن تؤمن قط. لم تكن قادرة على فهم هؤلاء الذين يلجؤون إلى الدين، لم تكن تفهم كيف يصبح المرء مؤمناً بعد أن يعيش مأساة مؤلمة. بالرغم من ذلك كانت تجلس في الكنيسة وسط

Twitter: @ketab_n

الكراسي الفارغة، في عزّ الظهيرة، فقد كان المكان يعزّيها ويقويها. كان نوعاً من السكينة المطلقة، لكن للحظات وامضة، نعم، للحظات فقط كانت تشعر بحرارة الإيمان بالمسيح. عندها كانت تركع وتتحول إلى قديسة مع شيطان في القلب.

أحياناً كانت تعود إلى مكان لقائهما الأول على الرصيف، عندما كانت تسير غير معروفة من قبله، منذ سبع سنوات. كانت تتساءل: «ماذا لو اصطدم بي أحدٌ ما الآن، كيف ستكون ردّة فعلي؟» لكن لم يأتِ أحد ليقطع عليها تأملاتها تلك.

كانت تمرّ أيضاً على المكان الذي لاقى زوجها فيه حتفه وهو يركض مرتديا الشورت، يصغي للموسيقى بسماعات في أذنيه. لقد اجتاز الشارع بطريقة خرقاء، وكانت تلك حماقته الوحيدة والأخيرة. وقفت على الرصيف، وراحت تتأمل عبور السيارات، لما لا تقتل نفسها في المكان ذاته؟ لمَ لا تجعل آثار دمائهما تختلط ضمن توحّد قاتل أخير؟ تبقى واقفة مدّة طويلة لا تعرف ماذا تعمل، والدمع يسيل فوق وجنتيها. كانت تأتي إلى هذا المكان خاصّة في الفترة الأولى التي تلت مراسم الدفن. لم تكن تعرف السبب، لماذا كانت تريد تعذيب نفسها بهذا الشكل. كان وجودها هنا عبثيّاً، فمن العبث تصوّر الحادث، ومن العبث رغبتها تلك في إعادة تجسيد لحظة موت زوجها. ربما كان يمثل هذا، في أعماقها الحل الوحيد؟ هل بمقدور أحد معرفة طريقة تحمّل هذه المأساة؟ ليس هناك من مناهج أو طرق. كل واحد منا يقرأ ما يمليه عليه جسده. كانت ناتالي ترضي نزعتها تلك بتواجدها هنا، تنوح على حافّة الطريق، وتترك نفسها لتموت وهي تذرف الدمع.

Twitter: @ketab_n

-19-

بعض المخطوطات لمشاريع مؤلفات موسيقية كان جون لينون سيؤلفها لو لم يكن قد مات عام 1980

Still Yoko (1982)

Yesterday and Tomorrow (1987)

Berlin (1990)

Titanic ; Soundtrack (1994)

Revival – The Beatles (1999)

-20-

حياة شارلوت بارون في اليوم الذي دهست فيه فرانسوا.

لولا اعتداء الحادي عشر من أيلول 2001 على برجي نيويورك لما كانت شارلوت قد أصبحت بائعة أزهار على الإطلاق. فالحادي عشر من أيلول يصادف عيد ميلادها، وكان والدها مسافراً في عمل إلى الصين، وقد أرسل إليها باقة من الأزهار. صعد جان ميشيل درجات السلّم إلى بيتها دون أن يكون على دراية بعد أن حقبة

Twitter: @ketab_n

كاملة من الزمن كانت على وشك أن تنقلب رأساً على عقب. رنّ الجرس فوجد نفسه أمام وجه شارلوت الشاحب. لم تستطع في تلك اللحظة أن تنطق بأي بكلمة. سألته وهي تأخذ الأزهار منه:

– «هل علمت ماذا جرى؟».

– «علمت ماذا؟».

– «تعال...».

أمضى جان ميشيل وشارلوت ذاك اليوم معاً، جالسين على الكنبة، وعيونهما شبه مغلقة، ناظرين لصور الطائرات وهي تصطدم بالبرجين. معايشة لحظات كهذه معاً جعلتهما يرتبطان برباط وثيق، فأصبحا لا يفترقان، حتى أنهما عاشا لبضعة شهور قصة حب قبل أن يقررا أنهما سيكونان أفضل حالاً كصديقين منهما كعاشقين.

بعد مضي مدّة من الزمن، أنشأ جان ميشيل مؤسسته الخاصة به لبيع وتوصيل الأزهار إلى المنازل وعرض على شارلوت أن تعمل معه، منذ ذاك الحين، انحصرت حياتهما في عمل باقات الزهور. في ذاك الأحد، حين حصل الحادث، كان جان ميشيل قد قام بترتيب كل الأمور. كان الزبون سيطلب يد خطيبته للزواج، ويريد أن يفعل ذلك بإرسال باقة من الورد إليها، حين كانت ستستلمها، ستفهم فوراً مغزى الرسالة، سيكون ذلك نوعاً من الإشارة المشفّرة بينهما. كان من الضروري تسليم تلك الأزهار في يوم الأحد ذاك، لأنه كان يوم عيد ميلاد لقائهما. قبل أن يغادر جان ميشيل بلحظات كي يقوم بالتسليم، تلقّى هاتفاً من والدته تقول له أن جدّه قد أُدخل المشفى. فتطوعت شارلوت بتوصيل باقة الورد. كانت

Twitter: @ketab_n

تحب كثيراً قيادة الشاحنة الصغيرة، خاصة إن لم يكن هناك سوى طلبية واحدة فلا تكون مضطرة للاستعجال، كانت تفكر في هذين العاشقين، وبالدور الذي كانت ستلعبه هي في قصة حبهما، ستكون أحد عوامل الحسم المجهولة ، كانت تفكر في كل هذا، وبأشياء أخرى أيضاً، عندما، اجتاز رجل الطريق فجأة بطريقة عشوائية، ضغطت على الفرامل لكن هذا كان بعد فوات الأوان.

انهارت شارلوت بعد الحادث. حاول أحد الأطبّاء النفسانيين جاهداً جعلها تتكلم لتطرح خارجاً وبسرعة تلك الصدمة، قبل أن تتحول إلى «مرض نفسي» وتنتقل من الشعور إلى اللاشعور. سألته فوراً: «هل يجب عليّ الاتصال بالأرملة؟». أخيراً أقرّت أن الاتصال سيكون عديم الجدوى، ثم ماذا ستقول لها؟: «أعتذر منك عما حصل» هل بإمكاننا الاعتذار في حالات كهذه؟ ربما يكون من الأفضل أن تضيف: «زوجك أحمق بركضه كيفما وأينما اتفق، فهو أيضاً قد خرّب حياتي، هل تدركين ذلك؟ أتعتقدين أن من السهل متابعة الحياة بشكل طبيعي بعد أن نقتل إنساناً؟».

كانت تشعر أحياناً بنوع شديد من الكراهية الحقيقية تجاه هذا الرجل الذي دهسته، بسبب عدم تقديره للعواقب. لكن في أغلب الأحيان كانت تلجأ إلى الصمت، فتبقى جالسة شاردة الذهن. تلك الساعات الصامتة كانت توحّدها مع ناتالي، فهما الاثنتان كانتا غارقتين في خدر غياب الحافز.

خلال فترة النقاهة التي استمرت لأسابيع، لم تكن تعرف لماذا كانت دائمة التفكير في الأزهار التي كان من المفترض إيصالها يوم الحادث ذاك، شكّلت تلك الباقة المهملة صورة عن الزمن الخائب،

Twitter: @ketab_n

كانت لا تنفكّ تعود أمام عينيها أحداث ذاك اليوم بالصور البطيئة، ولا يتوقف صوت الاصطدام عن أن يطرق سمعها، ثم، الأزهار كانت حاضرة دوماً، هناك في المقعد الأول تشوّش رؤيتها، كانت تلك الأزهار عبارة عن كفن ليومها ذاك، وسواسها الحصري على شكل بتلات.

ثار جان ميشيل عليها غاضباً، ونتيجة لقلقه الشديد، طلب منها العودة إلى العمل. كانت محاولة من إحدى المحاولات الكثيرة الهادفة إلى إيقاظها. أثمرت هذه المحاولات أخيراً، فقد رفعت رأسها وأخفضته لتقول «نعم» كما تقولها أحياناً الفتيات الصغيرات اللواتي يعدن أن يصبحن وديعات وعاقلات بعد اقترافهنّ حماقة ما.

كانت تعلم في أعماقها أن لا خيار لها، وأنها ملزمة على متابعة عملها، ولم يكن هذا بالتأكيد بسبب العناية الفجائية لزميلها، بل فكرت بأن كل شيء سيعود ولابد كما في السّابق، وقد سكّن هذا من روعها. إنما لا، لا شيء يمكن له أن يعود كالسّابق، فهناك أمر ما قد كُسر بعنف في حركة أيامها. ذاك الأحد كان دوماً حاضراً أمامها، تراه في كل يوم من أيام الأسبوع، في يوم الخميس، وتراه يوم الاثنين، ويتابع ملاحقتها حتى يوم الجمعة، والثلاثاء. ذاك الأحد لن ينتهي أبداً، فقد أخذ هيئة أبدية قذرة، ناثراً غباره حول المستقبل. شارلوت تبتسم، شارلوت تأكل، شارلوت تعمل، لكن كانت هناك ظلال على وجه شارلوت، وقد اختبأ حرف أو حرفان من اسمها في العتمة.

بدت مهووسة بفكرة واحدة ، سألت جان ميشيل فجأة:

Twitter: @ketab_n

– «الأزهار التي كان يجب عليّ توصيلها ذاك اليوم، هل قمت أنت بتوصيلها؟».

– «انتظري، لدي هموم أخرى في رأسي. سأنضمّ إليك فوراً».

– «لكن ألم يعاود الرجل الاتصال؟».

– «بالطبع. اتصلت أنا به في اليوم التالي، لم يكن مسروراً أبداً، فخطيبته لم تستلم شيئاً».

– «وبعد؟».

– «وبعد... لقد شرحت له.. قلت له أنه قد حدث معك حادث، وأن هناك رجلاً يرقد في السبات..».

– «وماذا قال؟».

– «لم اعد أذكر.. اعتذر.. ومن ثمّ تمتم ببعض الكلمات.. أظن أني فهمت أنه رأى في ذلك إشارة ما لأمر غير إيجابي بالمرّة».

– «هل هذا يعني... هل تعتقد أنه لم يطلب يد الفتاة للزواج؟».

– «لا أعلم».

تشوش ذهن شارلوت من هذه القصة، فسمحت لنفسها بالاتصال مع الرجل كي تسأله، فأكد لها أنه قد قرر إرجاء هذا الموضوع لوقت لاحق. أثّر بها هذا الحدث بشدّة. لا يمكن لهذا الأمر أن يمر بهذا الشّكل.

فكرت في تسلسل الأحداث، سوف يؤجّل العرس، وربما سوف يجرّ هذا تغييراً للكثير من مجريات الأمور. كان يضايقها أن تردّد بينها وبين نفسها أن كل الحيوات سوف تصبح مختلفة جرّاء ذلك. تخيّلت نفسها: «إن أنا أصلحت كل هذه الحيوات، فسيبدو وكأن

Twitter: @ketab_n

شيئاً لم يكن. إن أنا توصّلت إلى إصلاح الوضع فلسوف يكون باستطاعتي استعادة حياتي السّابقة».

ذهبت إلى خلفيّة المخزن تجهّز باقة مماثلة كتلك، ومن ثم أخذت تاكسي، وعندما سألها السائق:

– «هل الباقة لأجل حفل زواج؟».

– «كلا».

– «لأجل عيد ميلاد؟».

– «كلا».

– «لأجل.. تهنئة الحصول على شهادة جامعية؟».

–«كلا، إنها فقط كي أعمل ما كان يجب عليّ عمله يوم اصطدمت بشخص وقتلته».

عندئذ تابع السائق طريقه بصمت. نزلت شارلوت من السيارة، ووضعت الأزهار أمام عتبة منزل الفتاة. بقيت لبرهة أمام هذا المشهد، ثم قررت أن تأخذ بعض الوردات من الباقة، سحبت الوردات وغادرت. عادت لتأخذ تاكسي آخر. فمنذ يوم الحادثة احتفظت بعنوان فرانسوا لديها، كانت قد فضلت ألا ترى ناتالي، وبالتأكيد كان تفضيلها صائباً. فقد كان الوقت لم يزل مبكراً لترميم حياة مدمّرة، واللقاء معها وجهاً لوجه. لكنها شعرت الآن بأنها مدفوعة بدافع لا يقاوم. لم تكن ترغب في التفكير بالأمر. سارت التاكسي وها هي تتوقف الآن، للمرة الثانية بعد بضع دقائق، وجدت شارلوت نفسها على عتبة منزل المرأة. انحنت ووضعت بعض الأزهار البيضاء أما باب ناتالي.

Twitter: @ketab_n

-21-

همّت ناتالي بالخروج، وتساءلت إن لم يزل الوقت مبكراً لعودتها إلى العمل. مضى ثلاثة أشهر على وفاة فرنسوا، وتعتبر هذه مدّة قصيرة. لم تكن قد شعرت بأي تحسن. كان حرّاس الموت يتسللون إلى جسدها دون انقطاع ودون ملل. نصحها الأصدقاء بالعودة إلى العمل وعدم ترك نفسها تنساق وراء أحزانها، وأن تشغل وقتها بشكل لا يبدو معه الوقت غير محتمل. كانت تعلم تماماً بأن هذا لن يفيد في شيء، لا بل قد يزداد الأمر سوأً، خاصّة في المساء، لحظة تعود من عملها ولا تجده هنا، وسوف لن تجده أبداً.

«لا تستسلمي للحزن» يا لهذا التعبير الغريب! مهما يحصل معنا سنبقى مستسلمين للحزن، الحياة تتشكل من هذا الاستسلام، كل ما كانت ترغب به هو أن تمرّ الأيام وألا تشعر بثقل كل ثانية، رغبت أن تعيش الخفّة، وإن كانت الخفّة غير المحتملة.

لم ترغب أن تتصل مسبقاً قبل ذهابها للمكتب. أرادت أن يحصل الأمر بهذا الشكل، بغتة، وأيضاً كي تجعل الحدث أكثر سريّة. صادفت الكثير من الزملاء، في بهو المؤسسة، في المصعد، في الممرّات. حاول الجميع أن يظهر بعضاً من الدفء وهو يسير في طريقه، بكلمة، بحركة، بابتسامة، وأحياناً بالصمت. كانت هناك

Twitter: @ketab_n

مواقف ووضعيات لا يحصى لها، بيد أنها كانت جدّ متأثرة الآن. أتراها كانت ترغب في هذا؟ هل كانت تريد العيش في محيط ميت لا شيء فيه غير الشفقة والضيق؟ بما أنها قد عادت، فيتوجّب عليها بالتالي لعب مسرحية الحياة، والظهور بمظهر أن كل شيء على ما يرام، سوف لن تستطيع رؤية اللطف في نظرات الآخرين، والذي هو في النهاية عبارة عن غرفة انتظار للشفقة.

تردّدت وهي تقف دون حراك أمام غرفة مديرها، كانت تشعر أن دخولها يعني عودتها حقيقة للعمل. أخيراً قررت ودخلت الغرفة دون أن تطرق الباب. كان شارل غارقاً في قراءة اللاروس[14]، فقد كانت تلك هوايته، قراءة تعريف ما عند الصباح.

– «كيف حالك؟ هل أزعجك؟» سألت ناتالي.

رفع رأسه متفاجئاً، ظهرت أمامه كالتّجلي، انعقد لسانه، وخشي ألا يستطيع التحرك، مشلولاً بانفعالاته. تقدّمت نحوه:

– «هل أنت على وشك قراءة تعاريفك؟».

– «نعم».

– «ما هي كلمة هذا اليوم؟».

– «كلمة «الرقّة» لا أستغرب أنك ظهرت في هذه اللحظة بالذّات».

– «إنها كلمة جميلة».

– «أنا سعيد برؤيتك هنا، أقصد، كنت آمل أن تأتي».

حلّ بينهما الصمت. كان هذا غريباً، إنما هناك دوماً أوقاتاً لا

---

[14] Larousse: قاموس مفردات

Twitter: @ketab_n

نعرف فيها ما سنقول. في لحظات كهذه، كان شارل غالباً ما يعرض عليها كأساً من الشاي، وكان هذا يشكّل نوعاً من الوقود لكلامهما، بعدها، يعاودان الحديث بحماسة أكبر:

– «أصبح لدي بعض المساهمين في السويد. أعتقد أنك تعرفين أني أتحدّث السويدية قليلاً الآن؟».

– «لا».

– «نعم.. طلبوا مني أن أتعلّم اللغة السويدية... ومن حسن حظّي أني كنت أعرف القليل منها، إنها فعلاً لغة تافهة».

– ....

– «لكن في النهاية أنا مدين لهم بذلك. فهم دمثو الأخلاق... مع ذلك... أخيراً... ها أنا أقول لك هذا... لأني قد حدّثتهم عنك. ووافق الجميع أن نعمل تماماً بما تريدين. وبما أنك قد قررت العودة، فباستطاعتك القيام بذلك على طريقتك، كما تشائين».

– «هذا لطف منك».

– «لا علاقة للطف في هذا، فنحن فعلاً قد اشتقنا إليك هنا».

– ....

– همس أخيراً: «أنا اشتقت إليك».

كان من الصعب البوح بهذا النوع من الرغبة، هل كان هذا نوعاً من الانجذاب المرضي؟ لا ليس بالضرورة. بل كان هذا بسبب وجهها، فقد بدا وكأنه قد سما بمصيبتها، فاقم حزنها من اتقاد شهوته الجنسية لها.

Twitter: @ketab_n

-22-

تعريف كلمة «الرّقة» في قاموس اللاروس:
الرقّة: اسم مؤنث.
1- هي حال من يكون رقيقاً أو لطيفاً.
2- في الأدب: أن نكون رقيقين مع أحد ما يعني: أن نكون باردين، أو لسنا على وفاق معه.

-23-

كانت ناتالي جالسة وراء مكتبها. منذ اليوم الأول لعودتها كانت قد واجهت أمراً فظيعاً: الرّزنامة اليومية. فمن باب الاحترام لوضعها، لم يلمس أحدٌ أغراضها. لا أحد كان بإمكانه أن يتخيّل إلى أي مدى سيكون صادماً رؤيتها للتاريخ الثابت ليومها الأخير قبل الحادث. التاريخ السابق لليومين السابقين لموت زوجها. ففي تلك الصفحة من التقويم كان لم يزل على قيد الحياة. أمسكت بالرزنامة وراحت تقلّب صفحاتها، وراحت الأيام تمرّ أمام ناظريها. منذ موت فرانسوا شعرت بكل يوم يمرّ وكأنه حمل ثقيل. بينما

Twitter: @ketab_n

هنا، وفي بضع ثوان، وهي تقلّب الأيام، كان باستطاعتها أن تلاحظ بشكل محسوس الطريق الذي قطعته، في كل تلك الصفحات، كان فرانسوا لم يزل هنا. ها هو تاريخ اليوم، ثم جاءت بعده الأيام التي سيكون فيها تقويم جديد.

كانت ناتالي قد عادت إلى عملها منذ عدّة شهور، تغرق في عملها بطريقة وجدها البعض مفرطة. وبدا الزمن و كأنه يعاود دورانه. عاد كل شيء كما في السابق: روتين الاجتماعات والجانب العبثي للملفات التي نرقّمها كما لو أنها ليست أكثر من تسلسل عناصر لا أهمية تذكر لها. زيادة على ذلك، فالدرجة القصوى من العبث كانت أن هذه الملفات هي الباقية على قيد الحياة. نعم، هذا ما كانت تردّده لنفسها، وهي تؤرشف الملفات، كل هذه الوثائق القديمة التي لا قيمة لها هي أفضل منا في كثير من الأمور، فهي مقاومة للأمراض، للشيخوخة، كما للحوادث، فلا يمكن لأي وثيقة أن تدهس في يوم أحد وهي تمارس رياضة الجري.

-24-

تعريف كلمة «رقيق» بحسب قاموس لاروس، ذلك أن «الرّقة» وحدها لا تكفي كي نفهم معنى الرّقة.

رقيق أو رقيقة: «صفة» من أصل لاتيني[15]، وهي تعني:

---

[15] Delicat: Delicatus

Twitter: @ketab_n

– نعومة فائقة: رقيق، رهيف.

– فيما يخصّ الهشاشة نقول: صحة سريعة العطب أو ضعيفة.

– معنى الرقة في حال وضع صعب التّحكّم فيه، أو محفوف بالمخاطر، نقول: وضعية أو حالة خطرة.

– الشخص الرقيق الذي يظهر نوعاً من الحساسية الشديدة، أو الذوق الرفيع نقول عنه: شخص مرهف الحس، والنباهة.

– الرقة في المعنى السلبي تعني: من الصعب إرضاؤه. التظاهر بالحساسية.

- 25 -

منذ عودة ناتالي كان شارل مبتهجاً لدرجة أنه كان يجد أحياناً بعض المتعة في دروسه باللغة السويدية. بدأ شيء ما يُنسج بينهما، نوع من التنسيق، من الثقة، ومن الاحترام.

قدّرت ناتالي الفرصة التي كانت بين يديها وهي تحت إمرة رجل يحمل لها كل هذا العطف،لكنها لم تكن مغفّلة على الإطلاق، كانت تعرف تماماً أنها تعجبه، فتركته يبني أوهاماً، أقل أو أكثر واقعية. لم يكن يتمادى كثيراً لأنها كانت قد حددت مسافة بينهما بشكل بدت له وكأنها جدار غير قابل للاختراق، ومن جانبها لم تتدخل في لعبته، لأنها ببساطة لم تكن قادرة على اللعب، فقد كان هذا فوق طاقتها. حاول مراراً دعوتها للغداء، لكن محاولاته ذهبت

Twitter: @ketab_n

أدراج الرياح، وقد رُدّت كلها بصمت، لأنها ببساطة لم تكن ترغب في الخروج، فكيف بالأحرى إن كان هذا مع رجل.

وجدت الأمر غير مفهوم، فبما أنها كانت تمتلك الشجاعة للصمود اليوم كله، والتركيز على ملفات لا أهمية لها، فلم لا تطلق لنفسها العنان لبعض اللحظات من الراحة. لا بد وأن الأمر كان مرتبطاً بمبدأ الرغبة، فهي لم تكن تشعر أن لديها الحق في فعل أي شيء له علاقة بالخفّة. هذا هو الأمر، سوف لن تنجح في ذلك، حتى أنها ليست متأكدة من قدرتها على النجاح من جديد.

في هذا المساء، ستكون الأمور مختلفة، فقد وافقت أخيراً على دعوة شارل، وذهبا معاً إلى العشاء. كان قد وجّه لها حجّة دامغة، وهي الاحتفال بترقيتها. أجل، ذلك أنها نالت ترقية معتبرة، ومن اليوم فصاعداً سوف تترأس مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص. تساءلت إن كان هذا التطور المهني بالرغم من وجود ما يبرره من خلال مهاراتها، لم يكن يحمل في طيّاته شعوراً بالشفقة نحوها.

للوهلة الأولى أرادت أن ترفض دعوته، لكن كان من الصعب عدم قبول دعوة للاحتفال بالترقية. ثم بعد أن لاحظت استعداد شارل في ترتيب تلك السهرة، تساءلت إن لم يكن قد عجّل من تقدمها المهني فقط كي يحصل منها على الموافقة على العشاء. كل شيء محتمل، ولا فائدة من البحث كي نفهم. قالت في نفسها أنه كان محقّاً وأنها فعلاً مناسبة طيّبة كي تجبر نفسها على الخروج. ربما سوف تصلح ذات البين بنوع من اللامبالاة الليلية.

Twitter: @ketab_n

-25 -

شكلّ هذا العشاء لشارل رهاناً كبيراً، وكان يعلم أنه سوف يكون قاطعاً. استعدّ له بالرهبة نفسها التي شعر بها في لقائه الغرامي الأول أثناء مراهقته. لم يكن هذا حقيقة نوعاً من المغالاة، فعند تفكيره في ناتالي كان بمقدوره تقريباً أن يتخيّل أن هذه هي المرة الأولى التي سيتناول فيها العشاء مع امرأة. كانت كمن يمتلك قدرة عجيبة على حذف كل ذكريات حياته الحسّية.

حرص شارل على الابتعاد عن المطاعم المضاءة بالشموع كي لا يفاجئها برومنسية قد تحكم عليها في غير مكانها. مرّت اللحظات الأولى بشكل جيد، كان يشرب متحدثاً جملاً قصيرة، ولم تشكّل فترات الصمت القصيرة بينهما أي انزعاج، وهي بدورها أعربت له عن تقديرها كونها هنا. كانت تشرب وهي تفكر أنه كان يجب عليها معاودة الخروج قبل هذا الوقت، وأن المتعة لا تأتي إلا من الحركة، وتوصل بها الأمر للتفكير في أنها ترغب في الثمالة. مع ذلك، كان هناك شيء ما يشدها نحو الواقع، لم تتمكن أبداً من الهروب من واقعها بشكل تام. كان باستطاعتها الشرب قدر ما تريد، ولن يغيّر هذا من حالها في شيء.

Twitter: @ketab_n

كانت هنا ببساطة، في وضوح مطلق، تنظر إلى نفسها كما لو أنها تلعب دوراً كإحدى الممثلات فوق خشبة المسرح، وبازدواجيتها تلك راحت تراقب بنظرة ذاهلة تلك المرأة التي لم تعد هي، تلك التي كان باستطاعتها التواجد في عالم الحياة والإغواء. أنارت تلك اللحظة وبشكل جلي تماماً كل التفاصيل المتعذرة التحقق.

لكن شارل لم يكن يرى شيئاً، كان يسبح في المراحل الأولى، محاولاً دفعها للشرب كي يتمكّن من الدخول قليلاً في حياتها. كان مقهوراً، فمنذ شهور وهو يراها روسية. هو لا يدري تماماً ماذا يعني هذا التعبير، لكن هكذا كان الحال: في أفكارها، كانت ذات قوة روسية، كما في حزنها، وبهذا الشكل، سافرت أنوثتها من سويسرا إلى روسيا.

سألته: إذن، ما سبب هذه الترقية؟

– لأنك تقومين بعمل عظيم، كما أجد أنك رائعة، هذا كل ما في الأمر.

– هذا كل شيء.

– لماذا تسألين؟ هل تشعرين أنه ليس كل شيء؟

– أنا؟ لا أشعر بشيء.

– وإن وضعت يدي هنا، ألا تشعرين بشيء؟

لا يدري كيف تجرّأ على ذلك، فقد قال في نفسه أن كل شيء ممكن هذا المساء. كيف استطاع أن يكون بعيداً عن الواقع بوضع يده فوق يدها؟ تذكّر أيضاً لحظة وضعها فوق ركبتها، فنظرت إلى يده النظرة نفسها، فلم يستطع إلا أن ينسحب. عيل صبره من مقارعة حائط، أو العيش بشكل دائم ضمن أمور غير معلنة. أراد أن

Twitter: @ketab_n

يوضّح الأمور:

– أنا لا أروق لك، أليس كذلك؟

– لكن، لماذا تسألني هذا السؤال؟

– وأنت.. لمَ تطرحين الكثير من الأسئلة؟ لماذا لا تجيبين أبداً؟

– لأني ببساطة لا أعرف..

– ألا تعتقدين أنه يجب عليك السير للأمام؟ أنا لا أطلب منك أن تنسي فرانسوا.. لكن لا يجب أن تبقي منغلقة على نفسك طيلة حياتك. أنت تعلمين جيداً إلى أي درجة باستطاعتي أن أكون هنا قربك..

– ..... لكنك متزوج.

فوجئ شارل لأنها أشارت إلى زوجته. قد يبدو هذا جنونياً، لكنه بالفعل كان قد نسيها في تلك اللحظة، فهو لم يكن من هؤلاء الرجال الذين يخرجون لتناول العشاء مع امرأة أخرى. كان رجل اللحظة الراهنة. نعم، كان متزوجاً، ينعم بما ندعوه /الحياة الزوجية الهادئة/ لم يكن هناك من خلافات بينه وبين زوجته. لهذا فقد كان مفاجَئاً لأنه كان صادقاً بعمق في انجذابه نحو ناتالي.

– لكن زوجتي، لماذا تحدثيني عنها. إنها عبارة عن ظل! نحن بالكاد نتلامس.

– لا يبدو هذا واضحاً.

– هذا لأن همّها هو إنقاذ المظاهر. تأتي إلى المكتب فقط كي تتباهى، لكن آه لو تعلمين فقط...

– إذن اتركها.

– لأجلك أتركها على الفور.

Twitter: @ketab_n

– ليس لأجلي بل لأجلك أنت.

ران صمت تخلله عدة أنفاس وبضع رشفات من الشراب، فقد صُدمت ناتالي لأنه ذكر فرانسوا، وأنه حاول أن يحيد عن مسار السهرة بهذه السرعة وبقليل من اللباقة ويوجهها نحو وجهة بدائية مما جعلها تبدي رغبتها في العودة إلى المنزل. أحس شارل أنه بالفعل قد تمادى في حديثه، وأنه قد أفشل السهرة بتصريحاته تلك. ما الذي جعله لا يرى أن الوقت لم يكن مناسباً بعد لهذه الأمور؟ وأنها لم تكن جاهزة بعد؟ كان يجب عليه التصرّف ببطء وعلى مراحل، وهو الذي اندفع كالمجنون بأقصى سرعة محاولاً في دقيقتين التقاط رغبة مكبوتة منذ أعوام. حدث كل هذا بسبب بداية السهرة، فقد كانت البداية جميلة وواعدة جدّاً، هي التي دفعته إلى تلك الثّقة التي يتحلى بها الرجال المستعجلون.

تمالك نفسه، مع ذلك كان لديه الحقّ في قول كل ما كان يشعر به، لم تتعدَّ جريمته فتح قلبه. نعم، هذا صحيح، كل شيء كان ثقيلاً معها، وتمثالها كأرملة كان يعقّد الكثير من الأمور. فكر أنه كان سيملك فرصة أكبر في إغوائها لو كان فرانسوا على قيد الحياة، فموته جمّد حبهما ودفعه نحو نقطة أبدية محدّدة. كيف بالإمكان إمتاع امرأة في ظروف كهذه؟ امرأة تعيش في زمن متوقّف وثابت. بالحقيقة، كانت الأمور تفرض تساؤلاً معيناً فيما لم يكن فرانسوا قد تعمّد قتل نفسه كي يطيل بذلك حبّهما، فالبعض يفكر جيداً أن الشغف لابد له وأن ينتهي بشكل مأساوي.

Twitter: @ketab_n

- 27 -

خرجا من المطعم، وكان الانزعاج يزداد قوّة. لم يجد شارل الكلمة المناسبة، لا طرفة، ولا دعابة من شأنها أن تسمح له بتمالك نفسه، فقد كانا متورطين. منذ عدّة أشهر كان شارل لطيفاً، ودوداً، وكان مخلصاً ومحترماً، وها هي جهوده كلها في أن يكون رجلاً جيداً، قد تبخّرت، لأنه ببساطة لم يستطع التحكم برغبته.

كان جسده الآن مقطّع الأوصال بشكل غامض. كان كل عضوّ فيه يملك قلباً قائماً بذاته. حاول تقبيل ناتالي على وجنتيها، في محاولة أرادها أن تكون ودّية ومرحة. لكن رقبته كانت متشنّجة. دام هذا الوقت الخانق للحظات أخرى كتتابع بطيء لثوان جوفاء.

ثم، فجأة، ابتسمت له ناتالي ابتسامة كبيرة، أرادت أن تجعله يفهم أن كل ما جرى لم يكن بذي أهمية، ومن الأفضل نسيان تلك السهرة، هذا كل شيء. قالت له أنها ترغب في السير قليلاً وغادرت وهي تحتفظ بتلك اللهجة اللطيفة. تابع شارل تأملها، لاحق نظره ظهرها. لم يكن باستطاعته التحرك، تجمّد داخل فشله. ابتعدت ناتالي واختفت عن مرمى نظره وأخذت تصغر شيئاً فشيئاً، ولكن في الحقيقة كان هو من ينكمش، هو الذي كان يصغر أكثر فأكثر في مكانه.

عندئذ، توقفت ناتالي.

Twitter: @ketab_n

وقفلت راجعة.

كانت تسير من جديد نحوه، تلك المرأة التي، ومنذ لحظات قليلة، اختفت عن مرمى نظره. عادت لتكبر كلما تقدّمت خطوة منه. ماذا تريد؟ يجب عليه ألا يندفع،لا بد وأنها نسيت مفاتيحها، أو شالها، أو شيئاً ما من تلك الأشياء العديدة التي تهوى النساء نسيانها. لكن الأمر لم يكن يتعلّق بشيء مادي، يظهر ذلك جليّاً، فهي تعود مباشرة نحوه كي تتحدّث إليه وتقول له شيئاً ما. كانت تسير برشاقة هوائية، كبطلة من بطلات الأفلام الإيطالية عام 1967، أراد أن يتقدّم هو الآخر نحوها، ومن خلال هذا الانحراف الرومانسي، اعتقد أنها لا بد ستمطر الآن كما في الأفلام، وأن كل الصمت الذي ساد خلال نهاية السهرة لم يكن إلا نوعاً من اللبس والارتباك، وأنها عادت لا كي تتحدّث معه بل كي تعانقه وتقبّله. كان هذا فعلاً أمراً مدهشاً: ففي اللحظة التي غادرت فيها كان لديه الحدس بأنه يجب ألا يتحرك من مكانه، وبأنها سوف تعود أدراجها، من البديهي أن يكون هناك شيء ما متبادل بينهما، شيء ما غريزي وبسيط، قويّ وهشّ في الوقت نفسه. كان هذا هو الحال منذ بداية تعارفهما. بالطبع كان لابد له أن يفهم أن الأمر ليس سهلاً بالنسبة إليها، أن تبوح بعاطفة ما وزوجها قد توفي منذ مدّة بسيطة، بل حتى كان هذا أمراً فظيعاً ومع ذلك فكيف لها أن تقاوم؟ فقصص الحب هي دوماً غير أخلاقيّة.

أصبحت بالقرب منه الآن، مثيرة وأخّاذة، كتجسيد شهواني للأنوثة المأساوية. كانت هنا، حبيبته ناتالي:

– اعذرني إن لم أجبك منذ قليل... كنت متضايقة.

Twitter: @ketab_n

– نعم، أفهم ذلك.

– من الصعب عليّ التعبير بما أشعر به بالكلمات.

– أعرف هذا ناتالي.

– لكن أعتقد أن بمقدوري الإجابة: أنت ببساطة لا تعجبني. حتى أني أعتقد بأني لا أشعر مطلقاً بالراحة تجاه الطريقة التي تحاول فيها إغوائي، أنا متأكّدة بأنه لن يكون هناك أي شيء بيننا، ربما يكون السبب بكل بساطة عدم قدرتي على محبة أيّ كان،لكن، إذا ما حصل وتغيّر هذا الشعور في يوم ما فأنا على ثقة تامّة أن هذا الشخص لن يكون أنت.

– .....

– لم يكن باستطاعتي العودة إلى المنزل وأنا بهذه الحالة، كنت أفضّل أن أقول لك هذا.

– لقد قلته. لقد قلت ذلك، نعم لقد قلته، بما أني قد سمعت ذلك فهذا يعني أنك قلته، لقد قلته، نعم.

تأملت ناتالي شارل وهو يتلعثم ويتأتئ بالكلمات التي تطايرت بشكل تدريجي وبقيت معلّقة بالصمت. كلمات تشبه نظرات شخص متوفى. قامت بحركة لطيفة، ووضعت يدها على كتفه و من ثم عادت من حيث جاءت.. عادت نحو ناتالي الصغيرة.

أراد شارل البقاء واقفاً، ولم يكن هذا بالأمر السهل عليه. لم تصدق أذناه ما سمعتا، خاصّة بعد تلك اللهجة التي تكلمت بها. بكل تلك البساطة ودون أي سوء نيّة. كان يجب عليه الإقرار بالواقع: إنه لا يعجبها، ولن ينال إعجابها أبداً؟ لم لم يُظهر أيّ غضب. كان كنهاية مفاجئة لأمر كان يجهّز له منذ سنوات، إنها

Twitter: @ketab_n

نهاية هذا الاحتمال. كان للسهرة نهاية مسيرة التايتانيك نفسها. احتفالية في البداية وموت في النهاية، غالباً ما أخذت الحقيقة هيئة جبل جليدي. كانت ناتالي لم تزل في مرمى نظره، وكان يريد رؤيتها تختفي بأسرع ما يمكن، فحتى النقطة الصغيرة بدت له غير محتملة.

- 28 -

سار شارل قليلاً حتى موقف السيارات. وما إن أصبح في سيارته حتى أشعل سيجارة، كان ما يشعر به يتناسب مع ضوء النيون الأصفر العدواني. انطلق بالسيارة وأدار المذياع. كان المذيع يتحدّث عن سلسلة من المباريات هذا المساء التي كل نتائجها التعادل، وهذا ما شكّل حالة من التذبذب في ترتيب فريق الدّرجة الأولى.

كل شيء بدا متجانساً، فقد كان هو نفسه كنادٍ رياضي ضائع في جوفٍ رخو للبطولة. كان متزوجاً ولديه ابنة، ومدير شركة ناجحة، لكنه كان يشعر بفراغ هائل. وحده الحلم في ناتالي كان يملك القدرة على جعله حيّاً. كل شيء انتهى الآن، حُذف، دُمّر وتحطّم: كان باستطاعته ترديد مفردات كثيرة متشابهة، لكن هذا لن يغيّر من الأمر شيئاً. كان يفكر أن الأصعب من كونه مرفوضاً من المرأة التي يهواها هو أن يضطر للالتقاء بها كل يوم، وأن يجد نفسه قربها كل لحظة في الممر، لم يكن يفكر بالممر مصادفة، فرغم

Twitter: @ketab_n

كونها جميلة في المكتب، إلا أنه كان دائم التفكير بأن إغراءها الجنسي سوف يكون أكثر إثارة وهي في الممر. أجل، كانت في فكره مثال امرأة الممر. الآن، ها هو يدرك أنه وصل نهاية الممر ويتوجّب عليه أن يعود أدراجه.

من ناحية أخرى، من أجل العودة إلى بيته، لم يكن مضطراً لأن يقوم بنصف دورة. كانت سيارته تسلك طريقها المعتاد، كما لو كانت قطار أنفاق يسير سيره المعتاد نفسه. ركن السيارة، وعاد ليدخّن من جديد في باركينغ منزله.عندما فتح باب شقّته لمح زوجته أمام جهاز التلفزيون. لا يمكن أن يخطر ببال أحد أن لورنس كانت في يوم من الأيام تتمتّع بنوع من الحميمية العاطفيّة، كانت تغرق ببطء، لكن بثبات، في النموذج الأولي للبرجوازية المنهارة، والغريب أن شارل لم يكن يتأثر بهذه الصورة. تقدّم ببطء نحو جهاز التلفاز، وأطفأه. أصدرت زوجته احتجاجاً، دون اقتناع كبير. اقترب منها، وأمسك بذراعها بعنف، أرادت أن تقوم بردة فعل، لكن لم يخرج من فمها أي صوت، ففي أعماقها كانت تحلم بتلك اللحظة، تحلم أن يلمسها زوجها، تحلم بأن يتوقف عن المرور قربها كما لو أنها غير موجودة. كانت حياتهما المعتادة عبارة عن تمرين يومي لإلغاء الآخر. دون أن يتبادلا أي كلمة، اتجها نحو غرفة النوم. كان السرير مرتباً، وفجأة خُرّب. قلب شارل لورنس وأنزل سروالها. كان رفض ناتالي قد أعطاه الرغبة في ممارسة الجنس مع زوجته، وبأن يمارسه بشيء من العنف.

Twitter: @ketab_n

- 29 -

نتائج مباريات الدرجة الأولى في المساء الذي فهم فيه شارل بانـه لن ينال أبداً إعجاب ناتالي:

أوكسير ـ مرسيليا: 2–2

لانس ـ ليل: 1–1

تولوز ـ سوشو: 0–1

باريس سان جيرمان ـ نانت: 1–1

غرونبل ـ لومان: 3–3

سانت إيتان ـ ليون: 0–0

موناكو ـ نيس: 0–0

رين ـ بوردو: 0–1

نانس ـ كان: 1–1

لوريتان ـ لوهافر: 2–2

- 30 -

لم تعد علاقتهما بعد ذاك العشاء أبداً كالسّابق. وضع شارل حدّاً بينهما، وهذا ما فهمته ناتالي تماماً، فحواراتهما النادرة جدّاً، غدت

Twitter: @ketab_n

مهنية بحتة. كانت إدارة الملفات الخاصة بهما تتطلّب القليل من التدخل. أصبحت ناتالي منذ ترفيعها[16]، تدير مجموعة من ستة أشخاص. غيّرت مكتبها، وهذا ما جعلها تشعر بارتياح كبير، كيف لم تفكر بهذا الأمر مسبقاً؟ هل يكفي أن نغيّر الديكور كي نغير من حالتنا النفسيّة؟ كان يجب عليها مسبقاً أن تفكر في الانتقال، لكن ما كادت تفكر بهذه الإمكانية حتى فهمت أنها لا تملك الشجاعة لذلك، ففي فترة العزاء توجد قدرة متناقضة، قوّة بحتة تدفع كل شيء نحو ضرورة التغيير كما نحو المحاولات القاتلة للوفاء للماضي. لهذا، فقد تركت العنان لحياتها المهنية لتقودها إلى الالتفات نحو المستقبل. كان يبدو مكتبها في الطابق الأخير يلامس السماء، هنّأت نفسها لأنها لم تكن تخشى الأماكن المرتفعة. ها هو ذا نوعٌ من الاستمتاع الذي كانت تصنّفه في خانة البساطة.

تميزت الأشهر التالية بوفرة في العمل لدرجة فكرت في أخذ دروس في اللغة السويدية في حال تسلمها لمهام جديدة. لا يمكننا القول أنها كانت طموحة. كانت تبحث عن إرهاق نفسها بالملفات، وكان كل من حولها يتابع القلق عليها، معتبرين أن استغراقها في العمل لم يكن إلا نوعاً من اليأس. كانت تلك الفكرة تضايقها كثيراً، بالنسبة إليها كانت الأمور جد بسيطة: كانت تريد فقط العمل كثيراً كي لا تفكر، كي لا تعيش في الفراغ. فالمرء يُقاوم كل حسبما يشاء. أرادت لو ساندها أقرباؤها في معركتها بدلاً من وضع نظريات وهمية. كانت فخورة بما تعمل، حتى أنها كانت تذهب إلى المكتب

---

[16] منذ استلامها مهامها الجديدة، اشترت ثلاثة أزواج من الأحذية. (الكاتب)

Twitter: @ketab_n

في عطلة نهاية الأسبوع، وتأخذ معها أحياناً عملها إلى المنزل، كانت تنسى أوقات الدوام. بدون شك كانت تنهار أحياناً متعبة، لكن في الوقت الحاضر لم تكن تتقدّم إلا بفضل هذا الأدرينالين السويدي. أثّرت طاقتها في الجميع، وبما أنها لم تكن تُظهر أي نقطة ضعف فقد بدأ زملاؤها ينسون ما كانت قد مرّت به. غدا فرانسوا مجرّد ذكرى للآخرين. وقد يكون الأمر نفسه قد أصبح بالنسبة إليها، فتواجدها المكثّف في العمل لساعات طويلة جعلها دوماً جاهزة، خاصّة بالنسبة إلى أعضاء فرقتها. كانت «كلوّيه» آخر من يصل، وكانت أيضاً الأصغر سنّاً، تحب بشكل خاص أن تسرّ إليها بمشاكلها مع خطيبها، وقلقها الدّائم، فقد كانت شديدة الغيرة وكانت تعلم أن هذا لا فائدة منه، لكنها لم تتوصّل إلى السيطرة على نفسها ولا إلى الاحتفاظ بتصرف عقلاني. سمحت قصص «كلويه»، المصبوغة بعدم النضج لناتالي بمعاودة الاتصال مع عالم ضائع، عالم شبابها، خوفها من عدم إيجاد رجل تستطيع معه أن تعود إلى الشعور بالارتياح. كان في كلمات «كلويه» أكثر من ذكرى يُعاد تركيبها.

- 31 -

مقتطفات من سيناريو رواية «*الرّقة*»

مشهد 32: داخلي بار.

Twitter: @ketab_n

ناتالي وكلويه تدخلان إلى بار.. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي تأتيان بها إلى هذا المكان. كانت ناتالي تتبع كلويه. جلستا في زاوية قرب نافذة تطل على الخارج: هناك احتمال لهطول المطر.

تقول «كلوّيه» وبشكل جد عفوي: كيف الحال؟ هل أنت بخير؟

ناتالي: نعم. تمام.

كلويه تتأمّل ناتالي.

ناتالي: لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

كلويه: أودّ أن تكون علاقتنا أكثر توازناً، أن تحدّثيني أكثر عن نفسك، فالحقيقة نحن لا نتكلّم إلا عني.

ناتالي: ماذا تريدين أن تعرفي؟

كلويه: هل مات زوجك منذ زمن طويل، و.. و... هل تنزعجين من التحدّث في هذا الموضوع؟

بدت ناتالي مندهشة. لم يتطرّق أحدٌ إلى هذا الموضوع بشكل مباشر، بعد فترة قصيرة تتابع «كلويه» حديثها: في الواقع، أنت شابة، وجميلة، انظري إلى ذاك الرجل هناك، إنه لا يتوقف عن النظر إليكِ مذ دخلنا إلى هذا البار.

تدير ناتالي رأسها.... وتلقي نظرة على الرجل الذي كان ينظر إليها.

كلويه: أجده لا بأس به، برأيي إنه من برج العقرب، وبما أنك من برج الحوت، فهو مناسب تماماً.

ناتالي: أنا بالكاد رأيته، ثم، هل تقومين أنت مسبقاً بالتّوقعات.

كلويه: آه، لكن علم الفلك مهمٌّ جداً، «إنه مفتاح المشكلة مع صديقي».

Twitter: @ketab_n

ناتالي: إذن لا يمكنك فعل شيء، فهو لن يستطيع تغيير برجه.
كلويه: لا.. سيبقى هذا الأحمق دوماً من برج الثور.
لقطة لوجه ناتالي الذي دون تعابير. ثم يقُطع المشهد.

- 32 -

وجدت ناتالي من السّخف وجودها هنا وتبادل هذه الأنواع من الحوارات مع فتاة يافعة، خصوصاً أنها لم تكن قد توصّلت بعد لتعيش الحياة الحاضرة. ربما مكمن الألم قد يكون في أسلوبها الدائم كونها تُقتلع عن اللحظة الرّاهنة. كانت تنظر إلى مناورات المراهقين بلامبالاة، وكان لديها القدرة التّامة على القول «أنا لست موجودة هنا» كانت كلويه، بحديثها الحيوي والخفيف عن الحاضر، تحاول الإمساك بها، ودفعها إلى التفكير والقول «أنا هنا». لم تتوقّف عن الحديث عن هذا الرجل. ها هو قد ينهي كأس البيرة، ويبدو بالفعل وكأنه يتردّد في المجيء نحوهما. إنما لم يكن بالأمر السهل إطلاقاً التحول من النظرة إلى الحديث مباشرة ومن العين إلى الكلمة. كان يشعر بهذه الحالة من الاسترخاء التي قد تدفع المرء إلى أن يكون جريئاً في بعض الأحيان بعد يوم طويل وشاق من العمل، فالتعب غالباً ما يكون السبب في كل جرأة. كان يتابع النظر إلى ناتالي، حقيقة، ما الذي كان لديه ليخسره؟ لا شيء عدا إمكانية أن يكون بعيداً عن الجاذبية كونه غير معروف.

Twitter: @ketab_n

دفع ثمن كأسه، وغادر مكان المراقبة. تقدّم بخطوة بدا عليها التصميم. كانت ناتالي على بعد بضعة أمتار منه: ثلاث أو أربع أمتار لا أكثر، فهمت أن هذا الرجل يقترب كي يتحدث إليها، انتابها على الفور تفكيرٌ غريب: هذا الرجل الذي على وشك الاقتراب مني، من الممكن أن يموت دهساً خلال سبع سنين. هذا التفكير جعلها بالتأكيد تشعر بالاضطراب، وأظهر هشاشتها. كل رجل تجتمع به كان لابد وسيذكرها بلقائها مع فرانسوا. مع ذلك، فهذا الرجل لا يشبه زوجها في شيء. كان يتقدّم راسماً على شفتيه ابتسامة المساء، ابتسامة العالم السهل، لكن ما إن وصل إلى الطاولة حتى ظل صامتاً، كانت لحظة في معلّقة. ثم قرّر الاقتراب منهما، لكن دون أن يجهزّ أي كلام للتحدّث معهما. أتراه ببساطة كان متأثّراً؟ كانت الفتاتان تنظران مدهوشتين إلى هذا الرجل الجامد كعلامة تعجّب.

«مساء الخير.. هل باستطاعتي تقديم كأس من الشراب لكما؟» نطق أخيراً دون الكثير من الإلهام.

وافقت كلويه، فجلس قربها بشعور من قطع منتصف الطريق. بعد أن أخذ مكانه فكرت ناتالي: إنه أحمق، يعرض عليّ كأساً بينما كأسي لم تزل ممتلئة تقريباً. ثم، غيّرت رأيها فجأة. قالت لنفسها أن تردّده لحظة اقترب منهما كان مؤثراً جداً، لكن عادت مرة أخرى تغرق في العدوانية. استولت عليها دفعات متواصلة لأمزجة متناقضة، لم تعد تعرف ببساطة ماذا تفكّر، فكل بادرة من أفعالها كانت تخضع لإرادة متناقضة.

Twitter: @ketab_n

أخذت كلويه على عاتقها إدارة الحديث وهي تجمّع النوادر الإيجابية عن ناتالي، وتحاول إبرازها. بحيث تومي عند سماعها أن ناتالي هي امرأة عصرية، ناجحة، طريفة، مثقّفة، ديناميكية، دقيقة، كريمة، ومثالية. حدث كل هذا في أقل من خمس دقائق، بحيث لن يمرّ في ذهن هذا الرجل سوى سؤال واحد: ما الذي يجري في عقلها؟

أثناء كل مديح غنائي لكلويه كانت ناتالي تحاول أن تبتسم ابتسامة ذات مصداقيّة، مظهرة غمّازتيها، وخلال فترة قصيرة من الإشراق بدت طبيعية. ما الفائدة من محاولة بذل الجهد كي تظهر بمظهر اجتماعي ولطيف؟ ثم ماذا سيحصل بعد ذلك؟ موعد آخر؟ الحاجة إلى أن تكون أكثر ثقة؟ كان كل شيء بسيطاً وخفيفاً، وفجأة، ظهر لها ضوء في يوم من الأيام السوداء، أدركت وهي تصغي لتلك المحادثة التّافهة، الدوامة المتوحشة للحياة المزدوجة.

اعتذرت، ونهضت كي تذهب إلى الحمام. نظرت طويلاً إلى نفسها في المرآة، تأمّلت كل تفصيل من تفاصيل وجهها، بللت وجنتيها بقليل من الماء، هل تجد نفسها جميلة؟ هل لديها رأي واضح حول نفسها؟ حول أنوثتها؟ كان عليها أن تعود، فقد مضى بضع دقائق على وجودها هنا، جامدة مع تأمّلاتها المضطربة في أفكارها. عندما عادت، أخذت معطفها، اخترعت عذراً ما دون أن تبذل جهداً كي تظهر بمظهر الصّدق. تفوّهت كلويه بجملة لم تسمع منها شيئاً، فقد كانت قد أصبحت في الخارج. تساءل الرجل فيما بعد، بينه وبين نفسه، وهو يستلقي لينام، إن لم يكن قد بدا أخرقاً.

Twitter: @ketab_n

- 33 -

الأبراج الفلكية لأعضاء مجموعة ناتالي

كلويه: برج الميزان.

جان بيير: برج الحوت.

ألبير: برج الثور.

ماركوس: برج العقرب.

ماري: برج العذراء.

بونوا: برج الجدي.

-34 -

في اليوم التالي اعتذرت ناتالي بسرعة من كلويه، دون أن تدخل في التفاصيل. فهي مديرتها في المكتب، وقد كانت امرأة قوية. أكّدت ببساطة أنها لم تكن تشعر بعد بقدرتها على الخروج الآن. «يا للخسارة» همست زميلتها الشابة. كان هذا كل شيء، وكان يجب الانتقال إلى أمر آخر. بعد هذه المحادثة، بقيت ناتالي لبرهة

Twitter: @ketab_n

في الممر، ثم غارت في مكتبها. ظهرت لها الملفات أخيراً في ضوء الحقيقة: كلها عادية لا أهمية لها.

لم تكن قد ابتعدت تماماً عن العالم الحسي، لم تتوقف قط عن أن تكون أنثى، حتى في اللحظات التي كانت تريد أن تموت فيها. ربما كان هذا تكريماً لذكرى فرانسوا، أو ببساطة لأننا نكتفي أحياناً بالتّبرج فقط كي نبدو أننا أحياء. مضى على وفاته ثلاث سنوات، ثلاث سنوات من الحياة المتناثرة في الفراغ. اقترحوا عليها مراراً أن تنفصل عن الذكريات، لربما كانت تلك الطريقة الأمثل للتوقف عن العيش في الماضي، أن تفكر مراراً في تلك العبارات «الانفصال عن الذكريات» كيف لنا أن ننفصل عن ذكرى؟ تقبّلت هذه الفكرة بالنسبة للأشياء، فتخلصت من الكثير منها، لم تعد تتحمّل وجود تلك الأشياء التي كان فرانسوا يلمسها، وهكذا لم يبقَ لها منها الكثير، ما خلا تلك الصورة المتروكة في درج مكتبها، صورة تبدو ضائعة، كانت غالباً ما تنظر إليها، كي تُقنع نفسها أن قصّتهما قد حدثت حقيقة. في الدرج أيضاً كان هناك مرآة صغيرة، أخذتها كي تتأمّل نفسها، كما لو كان يفعل ذلك رجل يراها للمرّة الأولى. نهضت وأخذت بالسير جيئة وذهاباً في مكتبها، يداها على وركيها، وبسبب الموكيت، لم يكن يُسمع صوت حذائها ذي الكعب العالي الرفيع، والموكيت هو قتل للأحاسيس. لكن، من الذي استطاع أن يبتكر الموكيت؟

نقر أحدهم الباب بتحفّظ، بإصبعين لا أكثر. انتفضت ناتالي كما لو أن هذه اللحظات الأخيرة قد جعلتها تعتقد أن بإمكانها أن تكون وحدها في هذا العالم. قالت «ادخل». ودخل ماركوس. كان زميل

Twitter: @ketab_n

عمل من ذوي الأصول السويدية، من Ubsala [17]، المدينة التي لا تجذب اهتمام الكثير من الناس. حتى سكان اوبسالا كانوا ينزعجون من اسمها: فاسم مدينتهم كان له وقع كنغمة اعتذار. تعتبر السويد البلد الذي يملك أكبر نسبة انتحار في العالم، وبدلاً عن الانتحار فكر ماركوس بالهجرة إلى فرنسا. كان شكله غير جميل، لكن لا نستطيع أن نقول عنه أنه قبيح. كان لديه دوماً طريقة في اللباس خاصّة به: لا نستطيع أن نعرف إن كان قد أخذ تلك الثياب من جدّه، في إيماوس، أو من محال بيع الملابس المستعملة. كان كل هذا يشكل مجموعة قليلة التجانس.

«جئت لرؤيتك من أجل الملف 114» قال. هل من الضروري إلى جانب شكله الغريب أن ينطق جملاً غبية بهذا الشكل؟ لم يكن لناتالي أي رغبة بالعمل في هذا الوقت. كانت تلك أول مرّة ينتابها هذا الإحساس منذ زمن طويل. كانت تشعر كما لو أنها كانت يائسة: لدرجة أنه كان يمكنها الذهاب في عطلة لتقضيها في أوبسالا. راقبت ماركوس الذي لم يكن يتحرّك. كان ينظر إليها بانبهار. فبالنسبة إليه كانت ناتالي تمثّل نوعاً من الأنوثة المتعذّر الوصول إليها، مضافاً إليها نوع من الجاذبية التي يشعر بها البعض تجاه كل رئيس في العمل، وكل مسؤول يسيطر عليه. عندها قررت السير نحوه. سارت ببطء، ببطء شديد. كان بالإمكان قراءة رواية خلال فترة تقدمها. لم يبدُ أنها تريد أن تتوقّف، بالرغم من وجودها

---

[17] بالتأكيد نستطيع أنو نولد في اوبسالا ونصبح انغمار برغمان. هذا يعني أن أفلامه تساعد في تصوير أصوات تلك المدينة (الكاتب).

Twitter: @ketab_n

القريب جداً من وجه ماركوس. لم يعد السويدي يتنفس، ما الذي تبغيه منه؟ لم يكن لديه الوقت الكافي ليدير هذا السؤال في رأسه فقد راحت تقبّله بعنف، قبلة طويلة قويّة، كما يفعل المراهقون. ثم فجأة تراجعت وهي تقول: «بخصوص الملف 114 سنرى ذلك فيما بعد». فتحت الباب، وطلبت من ماركوس الخروج، وهذا ما فعله بصعوبة. كان كرجل الفضاء أرمسترونغ[18] على سطح القمر. تلك القبلة كانت خطوة كبيرة لإنسانيته. بقي لحظة دون حراك أمام باب المكتب، ونسيت ناتالي تماماً الذي جرى للتو. لم يكن لتصرفها أي علاقة بمجريات أحداث حياتها الأخرى. تلك القبلة كانت عبارة عن حالة من الفوضى المفاجئة في خلاياها العصبية، وهذا ما يمكن تسميته: عمل لا مبرر له.

-35-

ابتكار الموكيت

من الصعب معرفة من الذي ابتكر الموكيت. بحسب قاموس لاروس الموكيت ليس إلاّ «سجّادة تباع بالأمتار».

هذا التعبير يبرر الميزة البائسة لوجوده.

---

[18] أرمسترونغ: 21 تموز 1969 أول رائد فضاء مشى على القمر (الكاتب).

Twitter: @ketab_n

-36 -

كان ماركوس رجلاً دقيق المواعيد، يحب العودة إلى منزله الساعة السابعة والربع تماماً. كانت يعرف بدقة مواعيد RER (قطارات الضواحي) مثلما كان الآخرون يعرفون العطور المفضّلة لزوجاتهم. لم يكن تعيساً من هذه الحياة الرتيبة. كان لديه انطباع بأنه صديق لكل هؤلاء الغرباء الذين يصادفهم كل يوم. هذا المساء كان لديه الرغبة في الصراخ، رغبة أن يروي حياته للجميع. حياته مع شفاه ناتالي المطبقة على شفتيه، كان يريد أن ينهض وينزل في أول محطة قادمة، فقط كي يشعر بانقطاعه عن الرتابة، كان يريد أن يكون مجنوناً، وهذا ما أعطى الإثبات بأنه لم يكن بالفعل كذلك.

عبرت ذاكرته صور من طفولته في السويد بينما كان يسير باتجاه منزله. حدث هذا بسرعة. في السويد تشبه الطفولة، الشيخوخة في سويسرا. لكن مع ذلك، عاد ليفكّر بتلك اللحظات التي كان يجلس فيها آخر الصف. فقط كي يتأمّل ظهر الفتيات. بقي لسنوات معجباً بنقرة كرستينا، برنيلا، جوانا، وبالعديد من الفتيات الأخريات من ذوات المرتبة الأولى، دون أن يستطيع الاقتراب أبداً ممن هن في المراتب الأخرى. لم يكن يتذكّر وجوههن. كان يحلم بلقائهن فقط ليقول لهن أن ناتالي قد قبّلته، وليقول لهن أيضاً بأنهن لم يعرفن مقدار جاذبيته. آه كم تبدو الحياة حلوة.

Twitter: @ketab_n

ما إن وصل إلى شقّته حتى وقف متردداً. نحن مجتاحون من قبل أرقام كثيرة يجب علينا تذكرها، أرقام الموبايل، الدخول إلى الانترنت، بطاقات البنك... لهذا تأتي لحظة بالرّغم عنّا يختلط فيها كل شيء. نحاول فتح بوابة البناية بقراءة الرقم الذي حفظناه في هاتفنا. وبما أن ماركوس كان يتمتع بذاكرة منظمة تماماً، كان يشعر أنه بمنأى عن هذا النوع من عدم الترتيب، ومع ذلك، فهذا ما قد حدث معه في ذاك المساء. كان من المستحيل عليه تذكّر رمز قفل المنزل. حاول عدة مرات، لكن دون جدوى. كيف يمكن أن ننسى في المساء ما كنا نعرفه تماماً في الصباح؟ هل تدفعنا وفرة المعلومات بشكل مؤكد نحو فقدان الذاكرة؟ أخيراً، وصل أحد جيرانه ووقف أمام الباب. كان باستطاعته فتح الباب فوراً، لكنه تقصد التلكؤ قليلاً للاستمتاع بهذه اللحظة من السيطرة البديهية. من نظرته كان باستطاعتنا أن نفهم أنه يقول ما معناه: /عدم نسيان رمز القفل إشارة إلى قدرة الرجل الذّكورية/ تحرّك هذا الجار أخيراً، وقال لماركوس بلهجة طنانة «بعد إذنك، تفضل أنت أولاً» فكّر ماركوس: «أيها الغبي الصغير، لو كنت تعلم ما يحويه رأسي، ففيه من الشيء الجميل الشيء الكثير لدرجة نسيت معها كل المعطيات الغير مفيدة» صعد الدرج، ونسي فوراً هذا الحدث البغيض، كان يشعر أنه خفيف، ويعيد إلى ذهنه بشكل مستمر حادثة القبلة تلك. كانت بالأحرى كفيلم شعائري في ذكرياته. فتح أخيراً باب شقّته ووجد صالونه أصغر بكثير نسبة إلى رغبته في الحياة.

Twitter: @ketab_n

- 37 -

رمز الدخول إلى مبنى ماركوس

Ag624

- 38 -

استيقظ صباح اليوم التالي باكر جداً لدرجة أنه لم يكن متأكداً أنه قد نام أصلاً. كان ينتظر الشمس بفارغ الصبر، كموعد مهم. ما الذي سيجري هذا اليوم؟ كيف سيكون تصرّف ناتالي؟ وهو، ما الذي يجب عليه فعله. من يستطع معرفة كيف يتصرّف عندما تقبّله امرأة جميلة، دون أن تعطي أي تفسير لذلك؟ هاجمت الأسئلة تفكيره، ولم يكن ذلك بادرة حسنة. كان عليه أن يتنفّس بهدوء (.....) و(.....) هكذا، نعم، بهذا الشكل (.....) جيد جداً (.....) ويردد ويقول أنه ببساطة يوم كبقية الأيام.

كان ماركوس يحب القراءة، كان هذا الأمر هو الشيء الجيد المشترك بينهما. كان يستغلّ خط سيره اليومي في قطار الضواحي ليشبع نهمه، وقد اشترى مؤخراً العديد من الكتب ويجب عليه

Twitter: @ketab_n

الآن اختيار الكتاب الذي سوف يرافقه في يومه العظيم هذا. كان عنده كتاب ذاك الكاتب الروسي الذي يحبّه كثيراً، كتاب لكاتب أقل قراءة من تولتسوي ودوستوفسكي، دون أن نعلم حقيقة لماذا. لكن الكتاب كان ضخماً جداً. كان يريد نصاً يمكن له أن ينتش منه وفقاً لرغباته، لأنه كان يعلم تماماً أنه لن يستطع التركيز. لهذا قرر أن يأخذ كتاب «التحليل المنطقي للمرارة» للفيلسوف سيوران. ما إن وصل إلى المكتب، حتى حاول البقاء قدر المستطاع قرب آلة القهوة، وكي يبدو ذلك طبيعياً اضطر أن يشرب منها الكثير. خلال ساعة، بدأ يشعر بأنه مهتاج جداً، قهوة سوداء وليلة بيضاء، وهذا لا يشكّل إطلاقاً مزيجاً جيداً. ذهب إلى الحمام، وجد نفسه شاحباً، فعاد إلى مكتبه. لم يكن هناك أي اجتماع متوقع مع ناتالي اليوم، أليس من الأنسب أن يذهب ببساطة لرؤيتها مستخدماً حجة «الملف»؟. سيكون هذا غباء. لا يمكن أن يترك نفسه يغرغر بالتردد. برغم كل هذا أليس عليها أن تأتي هي! فهي التي قبّلته. لا يحقّ لنا التصرّف بهذه الطريقة دون أن نعطي المبررات لذلك، كما لو أننا سرقنا شيئاً ما وركضنا هاربين. هذا ما حصل تماماً: فلقد رحلت هاربة من شفتيه. كان يعلم تماماً أنها لن تأتي لرؤيته، ربما نسيت أيضاً تلك اللحظة التي لم تكن بالنسبة لها إلا تصرّفاً مجانياً؟ وكان حدسه في محله. شعر بظلم هائل من هذه الإمكانية: كيف بإمكان قبلة أن تكون مجّانية بالنسبة لها بينما هي لا تقدّر بثمن بالنسبة له؟ نعم، لا يمكن تثمين قبلة كهذه، فهي موجودة في أعماقه، تسير داخل جسده.

Twitter: @ketab_n

- 39 -

مقتطفات من تحليل لوحة (القبلة) للفنان غوستاف كليمت[19].

تعطي أغلب أعمال الفنان كليمت الفرصة للعديد من التأويلات، لكن استخدامه السابق لموضوع الزوجين المتعانقين في افريز أعمال بيتهوفن وأعمال ستوكليت سمح برؤية «القبلة» كإنجاز نهائي للسعي في تحقيق السعادة.

- 40 -

لم يستطع ماركوس التركيز، كان يريد تفسيراً للأمر، ولم يكن هناك إلا وسيلة واحدة لذلك: اختلاق مصادفة مصطنعة. السير جيئة وذهاباً أمام مكتب ناتالي كل النهار إن أمكن. لابدّ وأن تخرج في لحظة ما و.. هوب... سوف يكون هنا بمحض المصادفة، يمشي أمام مكتبها. في نهاية الصباح كان يسبح في عرقه. فكر فجأة: «لست في أفضل حالاتي!» فإن هي خرجت الآن لرأت رجلاً يقطر

---

[19] غوستاف كليمت: رسام نمساوي مشهور من مواليد 1862 توفي 1918.

Twitter: @ketab_n

عرقاً يضيّع وقته في السير في الممشى دون أن يقوم بأي عمل. سيبدو كشخص يسير بلا مبرر ودون فائدة.

بعد الغداء استعادت أفكار الصباح قوّتها. كانت إستراتيجيته جيدة، يجب متابعة ذهابه وإيابه، إنه الحل الوحيد، حتى من الصعب السير والتظاهر بالذهاب إلى مكان ما، يجب أن يتحلى بنظرة دقيقة ومركّزة. لكن الجانب الأصعب كان أن يتحرّك بطريقة سريعة ومخادعة. عند نهاية ما بعد الظهر، وبينما كان في حالة من التعب والإرهاق، التقى بكلويه فسألته: «هل أنت بخير؟ تبدو غريباً اليوم..».

– نعم، نعم أنا بخير، أروض قدميّ قليلاً، هذا يساعدني على التفكير.

– مازلت عالقاً في الملف 114.

– نعم

– هل تجري الأمور بشكل جيد؟

– نعم، لا بأس، تقريباً.

– اسمع، أنا ليس لدي مشاكل إلا مع الملف 108، كنت أريد التحدّث بهذا مع ناتالي، لكنها ليست هنا اليوم.

– آه حسناً؟ هي... ليست هنا؟ سأل ماركوس.

– كلا... أعتقد أنها سافرت إلى الريف. طيب، سأتركك الآن، سأحاول أن أحلّ موضوع هذا الملف.

بقي ماركوس جامداً دون أي ردّة فعل. كان هو الآخر قد سار طويلاً لدرجة يستطيع فيها أن يصل هو الآخر إلى الريف.

Twitter: @ketab_n

- 41 -

ثلاثة أقوال لسيوران كان ماركوس قد قرأها في قطار الضواحي.

فن الحب هو: معرفة كيف نضيف لمزاج مصاص الدماء تحفّظ شقائق النعمان.

في كل رغبة يتصارع جزار وناسك
الحيوان المنوي هو قاطع طريق في حالته النقية.

- 42 -

في اليوم التالي، وصل ماركوس بحالة ذهنية مغايرة تماماً، لم يكن يفهم لماذا كان قد تصرّف بهذه الطريقة الغريبة. ما الفكرة من السير جيئة وذهاباً؟ كانت القبلة قد سببت له الكثير من الاضطراب، ويجب التنويه أيضاً أنه في أيامه الأخيرة كانت حياته العاطفية هادئة تماماً، بيد أن هذا لم يكن سبباً كافياً ليتصرّف بشكل طفولي، كان يجب عليه أن يتمالك نفسه. لم يزل راغباً في

Twitter: @ketab_n

الحصول على شرح من ناتالي، لكنه لن يحاول مطلقاً أن يلتقي عن طريق لعبة، سوف يذهب بكل بساطة لرؤيتها.

طرق باب المكتب بحماس. قالت ناتالي «ادخل» ودخل دون تردد. عندها كان عليه أن يواجه مشكلة كبرى: كانت ناتالي قد زارت مصفف الشعر، وكان ماركوس حساس دوماً تجاه شعر المرأة. كان هنا المشهد مربكاً. كان شعر ناتالي أملسَ تماماً دون أية تجعيدة. إنه جمال مدهش! لو ربطته فقط كعادتها أحياناً، لكان كل شيء قد غدا أكثر بساطة، لكن أمام حدث شَعري كهذا شعر بفقدانه لأي كلام.

– «نعم ماركوس، لماذا أتيت؟».

قطع حينئذٍ انجرافه العقلي واستطاع أخيراً أن يلفظ أول جملة جاءت على لسانه:

– «يعجبني كثيراً شعرك».

– «هذا لطفٌ منك. شكراً».

– «لا، حقيقةً هو يعجبني كثيراً».

فوجئت ناتالي بهذا التصريح منذ الصباح، فلم تعرف إن كان عليها أن تبتسم أو تنزعج.

– «حسناً وبعد؟».

– «....».

– «مع ذلك أنت لم تأتِ لتراني كي تكلّمني عن شعري فقط».

– «كلا، كلا..».

– «إذاً؟ ها أنا أصغي إليك».

Twitter: @ketab_n

– «.....».

– «ماركوس... أنت هنا؟».

– «نعم..».

– «إذاً؟».

– «أريد أن أعرف لماذا قبلتِني؟».

للوهلة الأولى كانت ذكرى القبلة هي أول ما عبر تفكيره، كيف بإمكانها أن تنسى؟ لم تكن تستطع منع نفسها من مطّ شفتيها اشمئزازاً عند استعادة كل لحظة من تلك اللحظات، هل هي مجنونة؟ منذ ثلاث سنوات لم تكن قد اقتربت من أي رجل، حتى أنها لم تكن تفكّر مطلقاً بنيل إعجاب أحد، وها هي تقوم بتقبيل أحد زملائها التافهين. وقف ينتظر جواباً لما هو غير مفهوم على الإطلاق. كان الوقت يمضي، ويجب عليه أن يقول شيئاً ما:

– «لا أعرف» همست ناتالي.

كان ماركوس ينتظر أي جواب كان، حتى ولو كان رفضاً معيناً، لكن بالتأكيد لم يكن ينتظر هذا اللاشيء.

– «لا تعرفين؟».

– «لا، لا أعرف».

– «ليس من حقك أن تتركيني هكذا، يجب أن تشرحي لي».

لم يكن هناك شيء ليقال.

تلك القبلة كانت أشبه بالفنّ الحديث.

Twitter: @ketab_n

- 43 -

عنوان لوحة للفنان «كازامير ماليفيتش»[20]. مربعٌ أسود على خلفية بيضاء عام 1918.

- 44 -

فكّرت ناتالي بعد ذلك: لماذا فعلت ذلك؟ ببساطة هذا ما حدث. نحن لا نسيطر دوماً على ساعتنا البيولوجية الداخلية، خاصّة حين نكون في حالة الحداد، فهي أرادت الموت في تلك الفترة، حاولت أن تأخذ نفساً، ونجحت في أن تتنفّس وتأكل، لا بل نجحت حتى في العودة إلى عملها، في الابتسام، في أن تكون قويّة، اجتماعية وأنثوية. وهكذا مضى الزّمن بهذه الطاقة العرجاء لإعادة بناء الذّات، إلى اليوم الذي خرجت فيه إلى ذلك البار. لكنها هربت غير

---

[20] كازمير ماليفيتش: رسام روسي تجريدي (1887 – 1935) من روّاد «سوبرماتيزم» وهي شكل هندسي ملوّن بأحد الألوان الأساسية على أرضيّة بيضاء ليدلّ أنه فارغ لكن ممتلئ بالمعنى.

Twitter: @ketab_n

محتمّلة مناورة الإغواء، مقتنعةً أنها سوف لن يكون بمقدورها أن تهتمّ مطلقاً برجل بعد الآن. مع ذلك، في اليوم التالي، راحت تسير فوق الموكيت، هكذا، ومضت ومضة عابرة من الارتياب، وشعرت بجسدها وكأنه كتلة من الرغبة، بهيئتها وأوراكها، حتى أنها تأسفت لعدم سماعها صوت كعبها العالي وهي تسير فوق الموكيت. هذا كله كان عرضةً لولادة شعور مفاجئ ذي قوّة مضيئة، دون أي إنذار. هنا، في هذه اللحظة بالذات دخل ماركوس الغرفة. لا يوجد أي تفسير آخر للأمر، فساعتنا البيولوجية غير عقلانية. كان هذا يشبه تماماً وجع القلب: لا نعلم متى نشفى منه، وفي أسوأ لحظات الألم نشعر أن هذا سوف يستمر فينا إلى الأبد، ومن ثمّ، وفي صباح أحد الأيام نتعجّب كيف لم نعد شعر بهذا الألم الرهيب،ويا للمفاجأة عندما نلاحظ أن الألم قد انتهى. لم في هذا اليوم بالتحديد؟ لماذا ليس بوقت لاحق أو سابق؟ إنه القرار الاستبدادي لجسدنا. لأجل هذا الدافع للقبلة يجب على ماركوس ألا يسعى نحو تفسير ملموس. كان قد ظهر في اللحظة المناسبة. في الحقيقة أغلب القصص تُختصر في صيغة هذه المسألة البسيطة للوقت المناسب. كان ماركوس الذي أضاع الكثير من لحظات حياته، على وشك اكتشاف قدرته على الظهور في اللحظة المثالية في مجال رؤية امرأة.

قرأت ناتالي الأسى في عينيه بعد أن تبادلا هذا الحديث، غادر ببطء دون أن يصدر أي ضجة، كفاصلة منقوطة في رواية مؤلفة من ثمانمائة صفحة. لم تكن تستطيع تركه وهو في هذا الحال. كانت

Twitter: @ketab_n

منزعجة جداً لأنها تصرفت بهذا الشكل. فكرت، أنه بالرغم من ذلك، هو زميل رائع، محترم من الجميع، ومما زاد في انزعاجها فكرة أنها قد جرحته. اتصلت به في مكتبه، فأخذ الملف 114 تحت ذراعه، واتجه نحو مكتبها. في طريقه، قام بدورة ودخل إلى الحمام كي يضع القليل من الماء البارد على وجهه. فتح الباب وهو يشعر بالفضول مما سوف تقوله.

بادرته قائلة: شكراً لأنك أتيت.

– العفو.

– أردت الاعتذار، لم أعرف ماذا أقول. وأقول لك الحق، أنا لا أعرف أكثر الآن...

– ...

– لا أعرف ماذا دهاني. بالتأكيد هو نوع من الاندفاع الجسدي... نحن نعمل معاً، ويجب علي القول أن هذا غير ملائم على الإطلاق.

– أنت تتحدثين كالأمريكيين، وهذا ليس بالمؤشر الجيد.

بدأت تضحك. يا له من جواب غريب. كانت تلك المرة الأولى التي يتحدث فيها معها خارج موضوع الملف. اكتشفت معلومة جديدة عن شخصيتها الحقيقية، فكان يجب عليها أن تستأنف الكلام:

– «بل أتحدث كمسؤولة عن مجموعة من ستة أشخاص، والتي تشكل أنت جزءاً منها. وصلت في ذاك اليوم في وقت كنت أحلم فيه، ولم أكن أعي اللحظة التي أنا فيها».

Twitter: @ketab_n

«لكن هذه اللحظة كانت الأكثر واقعية من كل لحظات حياتك» احتج ماركوس قائلاً، دون أن يفكر بما يقول. فقد خرج هذا التعبير مباشرة من قلبه.

فكرت نتالي: سوف لن يكون الأمر بسيطاً، لذلك فمن الأفضل إغلاق هذا الحديث، وهذا ما فعلته فوراً، وبطريقة جافة قليلاً.

بدا على ماركوس أنه قد فهم، فبقي جامداً أمام مكتبها، باحثاً دون جدوى عن القوة كي يغادر. الحقيقة أنها حين استدعته منذ عشر دقائق، كان قد تخيل أنها قد استدعته كي تعاود تقبيله مرة أخرى. كان قد سافر في هذا الحلم، وها هو يفهم الآن، وبصورة قاطعة، أن لا شيء يمكن أن يحصل بينهما، كان مجنوناً عندما فكر بهذه الطريقة، فقد قبلّته هكذا بكل ببساطة، وكان من الصعب عليه التسليم بالأمر، كما لو كانت السعادة قد قُدمت إليك على طبق، ومن ثم سُحبت منك بعد وقت قصير. كان يفكر أنه لن يتذوق مرة أخرى طعم شفتي ناتالي، كان يفكر لو أنه لم يعش أبداً تلك اللحظة، لأنه كان يعلم تماماً أنه سيلزمه شهور للتعافي منها. تقدم نحو الباب، فوجئت ناتالي لرؤيتها دمعة تتشكل في عينيه. دمعة لم تذرف بعد، بيد أنها كانت بانتظار الوصول إلى الممر كي تترك لنفسها العنان كي تذرف، وهو كان يحاول جاهداً الإمساك بها، فهو لم يرغب في البكاء، خاصة أمام ناتالي، سيكون هذا في منتهى الغباء، لكن سيل تلك الدمعة كان شيئاً لا يمكن التنبؤ به.

Twitter: @ketab_n

- 45 -

فلسفة مفكر بولوني

هناك أشخاص رائعون، قد نلتقي بهم في الوقت غير المناسب، وهناك أشخاص هم رائعون لأننا نلتقي بهم في الوقت المناسب.

-46 -

قصة قصيرة عاطفية لماركوس، عبرت من خلال دموعه.

قبل أي شيء، لنقم هنا باستبعاد بكاء الطفولة: كالبكاء أمام الأم أو معلمة المدرسة. فسبب بكاء ماركوس هنا كان لأسباب عاطفية بحتة. بالنتيجة، قبل هذه الدمعة التي حاول جاهداً السيطرة عليها أمام ناتالي، كان قد بكى في السابق في مناسبتين. يعود تاريخ الدمعة الأولى إلى زمن كان فيه في السويد، مع فتاة شابة تدعى بريجيت. لم يكن اسمها سويدي الأصل، لكن حسناً، لم يكن لبريجيت باردو حدود أيضاً. فوالد بريجيت قضى حياته بالحلم في تلك الأسطورة، ولم يجد طريقة أخرى للتعبير عن هذا الإعجاب إلا

Twitter: @ketab_n

بتسمية ابنته بهذا الاسم متجاوزاً بذلك الحظر النفسي لتسمية ابنته تكريماً لحلمه الجنسي. غير أن القصة العائلية لبريجيت لا تهمّنا أليس كذلك؟

كانت بريجيت نوعاً من تلك الأنواع الفضولية من النساء تحديداً. كان باستطاعتها ـ في أي موضوع ـ عدم تأكيد أي رأي. وكان هذا حال جمالها أيضاً: ففي كل صباح كانت تستيقظ وعلائم الفخر على وجهها، واثقة تماماً من نفسها، تجلس دوماً في المقعد الأول، محاولة أحياناً إرباك الأساتذة الذكور، مستغلّة جمالها الرائع، كي تحرّف رهان السياسة الجغرافية عن مسارها. عندما كانت تدخل إلى غرفة، يبدأ الرجال بالحلم بها، وتكرهها النساء غريزيّاً. كانت موضوع كل التأويلات وهذا ما أدّى إلى إغاظتها. من هنا راودها ذلك الإلهام العبقري لتهدئ تلك المشاعر الملتهبة: وهو الخروج مع الشاب الأقل لفتاً للأنظار. وبهذه الطريقة سوف يخشاها الذكور، وتطمئن إليها النساء. كان ماركوس هو الذكر المحظوظ الذي وقع اختيارها عليه، ودون أن يفهم لماذا، أصبح مركز العالم يُهتمّ به فجأة. كان هذا كما لو أن أميركا قد دعت إمارة لتشتنستن[21] للغداء. بدأت بريجيت توجه إليه سلسلة من المجاملات، وتتقصّد أن تنظر إليه دوماً.

– قفا رقبتي هي من أخبرني بكل شيء، فلقفا رقبتي عيون. قالت بريجيت.

---

[21] Lichtenstein: إمارة صغيرة تقع غرب أوروبا، في جبال الآلب، بين سويسرا والنمسا، لا يتجاوز مساحتها 160 كم مربع. وهي رابع إمارة مستقلة في أوروبا بعد الفاتيكان، موناكو، وسان ماران.

Twitter: @ketab_n

وبناءً على تلك المحادثة ولد التفاهم بينهما.

أحدث هذا التفاهم الكثير من اللغط. ففي المساء كانا يغادران المعهد معاً تحت الأنظار المبهورة للجميع. في تلك الفترة لم يكن ماركوس يملك بعد وعياً واضحاً عن شخصه. كان يعلم أن له شكلاً جسدياً قليل الجاذبية، لكن لم يبدُ تواجده مع فتاة جميلة أنه من الأمور الغير طبيعية. كان منذ فترة قد سمع «أن النساء لسن أكثر سطحية من الرجال، ولا يشكّل المظهر الخارجي بالنسبة إليهنّ أهمية كبرى، فالمهم لديهن أن يكون الرجال دوماً مثقفين ومحبين للمرح»، لذلك فقد راح يتعلّم أشياء كثيرة، ويحاول أن يقدّم البراهين على ذكائه، وعلينا أن نقرّ بأنه قد أحرز بعض النجاح في ذلك. وهكذا، اختفت ملامح وجهه خلف ما يمكن أن نسميه تقريباً بعض الجاذبية.

لكن هذا الجمال انهار أمام المسألة الجنسية. لابدّ وأن بريجيت قد بذلت الكثير من الجهد، لكن في اليوم الذي حاول فيه لمس ثدييها الرائعين، لم تسيطر على يدها فارتفعت أصابعها الخمسة لتضرب وجه ماركوس المتفاجئ. التفت لينظر في المرآة، فاكتشف بدهشة العلامات الحمراء على صفحة وجهه البيضاء. سيبقى ماركوس وقتاً طويلاً يتذكّر فيه هذا اللون الأحمر، وسيرتبط هذا اللون بفكرة رفضها له. حاولت بريجيت الاعتذار بقولها أن حركته كانت متهورة، لكن ماركوس فهم ما لم تقله الكلمات. شيء ما حيواني وداخلي أثار قرفه. نظر إليها وبدأ بالبكاء. كل جسد له طريقة للتعبير عن نفسه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يبكي فيها أمام امرأة.

Twitter: @ketab_n

حصل على الشهادة الثانوية السويدية، وقرر الذهاب ليعيش في فرنسا، حيث لم تكن النساء هناك يشبهن بريجيت. ونظراً لأنه كان مجروحاً من مرحلة حياته العاطفية الأولى، فقد طور في نفسه نوعاً من الحماية، ربما سيعيش في مسار متوازٍ مع العالم الحسي. كان يخشى المعاناة لأنه ـ ولأسباب مشروعة ـ شخص غير مرغوب فيه. كان هشّاً، دون أن يعرف كم كان بإمكان هذه الهشاشة أن تحرك امرأة. بعد مضي ثلاث سنوات من العزلة المدينية، يائساً من الالتقاء بالحب، قرر أن يشارك بجلسة (تعارف سريع). بهذه الطريقة كان بمقدوره الالتقاء بسبع نساء بحيث يمكنه التحدث معهن لمدة سبع دقائق. كان هذا وقتاً قصيراً جداً لرجل مثله، كان مقتنعاً أنه يلزمه على الأقل دهرٌ كي يقنع نموذجاً من الجنس اللطيف أن يتبعه في طريق حياته الضيق. مع ذلك، فقد حدث أمر مستغرب ولافت، فمنذ اللقاء الأول حصل لديه نوع من التقارب المباشر مع إحداهن. كانت تدعى أليس[22]، وكانت تعمل في صيدلية، حيث كانت تدير أحياناً بعض ورشات التجميل[23]. في الواقع، كان الأمر بسيطاً للغاية: فمن شدة ما أزعجهما الوضع الذي كان قد مرّ بهما، شعرا هما الاثنين، بالاسترخاء في هذه الجلسات.

لكن لم تتجاوز علاقتهما العام الواحد. كان ماركوس معجباً بأليس لكنه لم يكن يحبها، بالأخص، لم يكن يشتهيها كفاية.

---

[22]: من الغريب لمن يدعى أليس أن يعمل في صيدلية. بشكل عام، كانت التي تدعى أليس تعمل في مكتبة أو وكالة سفر. (الكاتب)

[23]: لهذا كان بإمكاننا التساؤل: هل حقاً كانت تدعى أليس؟ (الكاتب)

Twitter: @ketab_n

شكلّت هذه معادلة صعبة: ففي المرة الأولى التي يلتقي فيها بإنسانة جيدة يعجز في الوقوع في حبها. هل نحن محكومون باللاكمال؟ خلال أسابيع العلاقة بينهما، تحسنت خبرته في طريقة العيش المزدوج. اكتشف قوته وقدرته على أن يكون محبوباً. نعم، لقد وقعت أليس في حبه بجنون، وكان هذا أمراً مربكاً لشخص لم يعرف إلا الحب الأمومي (إن وجد) كان يملك شيئاً من النعومة والبساطة المؤثرة، فلديه مزيج من القوة التي تُطمئن، ومن الضعف المؤثّر. في الواقع، كان هذا الضعف سبباً في تأخير الأمر المحتوم، وترك أليس. مع ذلك فقد فعلها في صبيحة أحد الأيام، لكن سبَّب له ألم تلك الشابة جرحاً عميقاً، ربما تجاوز حتى آلامه الخاصة. لم يستطع منع نفسه من البكاء، لكنه كان يعلم تماماً في قرارة نفسه، أنه كان يأخذ القرار الصائب. فهو فضَل الوحدة بدلاً من الهوة العميقة بين قلبيهما. وكانت تلك، هي المرة الثانية التي يبكي فيها أمام امرأة.

مضى تقريباً عامان لم يحدث خلالهما شيء يُذكر في حياته. كان يصادف له أن يتأسف على أليس، خاصة في جلسات جديدة من (التعارف السريع) والتي كانت مخيبة تماماً للآمال، هذا إن لم نقل أنها كانت مهينة، عندما لم تكلف بعض الفتيات نفسها بأي جهد للتحدث إليه، فقرر حينئذ عدم الذهاب مرة أخرى إلى تلك الجلسات.أو لربما نأى بنفسه عن فكرة العيش مع أحد؟ غالباً ما كان يشعر بعدم جدوى العيش المشترك، على كل، كان هناك ملايين من العزاب، وبإمكانه الاستغناء عن المرأة. كانً لا يفتأ يردد ذلك، لطمأنة نفسه، كي لا يفكر إلى أي درجة كان تعيساً بوضعه

Twitter: @ketab_n

هذا. يحلم بشدة بجسد أنثوي، ويصعب عليه أحياناً القول لنفسه أنه كان محرماً عليه من الآن وصاعداً، وبأنه أبداً، لن يحصل على تأشيرة دخول إلى عالم الجمال.

فجأة، جاءت ناتالي وقبلته: رئيسة عمله والمصدر البديهي لاستيهاماته. بعد ذلك لم تلبث أن شرحت له أن هذا لم يحصل. هكذا إذاً، كان يجب عليه أن يعتاد على الأمر. على كل حال هذا ليس بالأمر المهم. ومع ذلك فقد بكى، نعم، سالت دموع من عينيه، وهذا ما فاجأه مفاجأة بالغة، دموع لا يمكن التنبّؤ بها، أهو هشّ لهذه الدرجة؟ لا، فالأمر ليس كذلك، فهو غالباً ما كان يُحشر ضمن مواقف أكثر صعوبة، لكن ما حصل هو أنه كان قد تأثر بشكل خاص من هذه القبلة، لم يتأثر من جمال ناتالي فقط بل من جموح حركتها. لم يقبّله أحد أبداً بهذه الطريقة قبل أن يستأذن من شفتيه. هذا السحر هو ما أثّر فيه لدرجة ذرف فيها الدمع، وهذه المرة كان يذرف دموع خيبة الأمل.

- 47 -

عندما غادر عمله مساء الجمعة ذاك، كان يشعر بالارتياح لأنه سيكون باستطاعته الاختباء طوال عطلة نهاية الأسبوع. سوف يستخدم يومي السبت والأحد كغطائين كبيرين. لم يرغب في عمل شيء، حتى لم يكن لديه رغبة في القراءة، لهذا، سوف يتمركز أمام

Twitter: @ketab_n

التلفزيون، وسيكون باستطاعته متابعة مشهد استثنائي، وهو انتخاب السكرتير الأول للحزب الاشتراكي الفرنسي. فالدورة الثانية سوف تتنافس فيها امرأتان: مارتين أوبري، وسيجولين رويال، لم يكن حتى اليوم مهتمّاً بالشؤون السياسية الفرنسية، لكن هنا، شكّل له الأمر قضية مثيرة، لا بل أكثر من ذلك، كانت قضية من شأنها أن تقدّم له أفكاراً.

من مساء يوم الجمعة حتى يوم السبت، كانت النتائج قد ظهرت، لكن لم يكن باستطاعة أحد أن يقول من هي الرابحة. أخيراً، في الصباح الباكر أعلنت مارتين أوبري فوزها بفارق اثني وأربعين صوتاً فقط. لم يقتنع ماركوس بمثل هذا الفارق الصغير. صرخ أنصار سيجولين رويال: «لا تتركوهم يسرقون انتصارنا!» جملة خرافية، فكّر ماركوس. واصلت الخاسرة محاربتها ونقاشاتها حول عدد النقاط. من الأجدر القول أن معلومات يوم السبت بدت وكأنها قد أعطتها الحق في المقاومة، كما لو أنهم قد اكتشفوا بعض الغش والأخطاء، كانت الفجوة بينهما آخذة في النقصان. راح ماركوس يصغي وهو مأخوذ تماماً بهذه المسألة، إلى تصريحات مارتين أوبري، فقد قدّمت نفسها على أنها السكرتير الأول للحزب الاشتراكي، لكن هذا لم يكن بالأمر السهل. ففي مساء اليوم ذاته، كانت سيجولين رويال تعلن في نشرة الأخبار المتلفزة بأنها هي أيضاً سوف تصبح السكرتير القادم. هما الاثنتين أعلنتا فوزهما! انبهر ماركوس من عزم هاتين المرأتين، وخاصّة من تلك المرأة الأخرى، التي برغم خسارتها، تابعت مقاومتها بعزيمة قصوى، هذا كي لا نقول خارقة. كان يرى في قوّة ذينك الحيوانين السياسيين كل ما

Twitter: @ketab_n

كان لا يملكه هو. هذا ما توصّل إليه في ليلة السبت وهو تائه في المعركة الفكاهية ـ المأساوية ـ للاشتراكيين. أن يقاوم. قرر ألا يبقى عند هذه النقطة مع ناتالي، حتى وإن كانت قد قالت له أن كل شيء قد انتهى، وأن ليس بالإمكان تصوّر أي شيء كان، سوف يتابع إنكار هذا القول. سوف يصبح السكرتير الأول في حياتها، مهما كلّفه الأمر.

أول خطوة سوف يقوم بها هي: المعاملة بالمثل، فإن كانت قد قبّلته هي دون أن تأخذ رأيه، فهو لا يرى لماذا لا يستطيع أن يفعل المثل. صباح يوم الاثنين، وعند ساعات العمل الأولى، سوف يذهب إليها كي يعيد العقاب لشفتيها. سوف يتوجّه نحوها بخطوات واثقة (وكان هذا هو الجزء الأكثر تعقيداً في هذه الخطة: فهو لم يكن موهوباً في السير بخطى واثقة) ويستولي عليها بطريقة رجولية (وكان هذا الجزء الآخر الأصعب في هذه المسألة أيضاً: فهو لم يكن أبداً موهوباً كي يقوم بأي عمل على نحو رجولي إلى حدّ ما) بعبارة أخرى، كانت تبدو خطة الهجوم تلك معقّدة، لكن لم يزل أمامه يوم الأحد بالكامل كي يجهّز للأمر، يوم أحد طويل جداً للاشتراكيين.

- 48 -

التصريحات التي أدلت بها سيجولين رويال، لحظة استلمت بأغلبية 42 صوتاً.

«أنت نهمة يا مارتين. أنت لن تعترفي بانتصاري».

Twitter: @ketab_n

- 49 -

وقف ماركوس أمام باب ناتالي، فقد حان وقت العمل، وهذا ما رماه في الجمود التام. مرّ من هناك «بونواه»، وهو زميل له في نفس مجموعته:

– حسناً ، ماذا تفعل؟

– أوه... لدي موعد مع ناتالي.

– وهل تعتقد أنك بتسمّرك أمام بابها سوف تراها؟

– كلا... في الواقع موعدنا في العاشرة... وتشير الساعة الآن إلى التاسعة وتسع وخمسون دقيقة، وأنت تعرفني، أنا لا أحب أن أكون مبكراً..

ابتعد زميله وهو يبدو عليه بوضوح أنه في الحالة ذاتها التي شاهد فيها عام 1992 مسرحية لصموئيل بيكت في يوم من أيام نيسان، على مسرح إحدى الضواحي.

كان ماركوس مضطراً إلى التحرك الآن. دخل مكتب ناتالي، كان رأسها غارقاً في أحد الملفات (أتراه الملف 114؟) رفعت رأسها في الحال، فتقدّم نحوها بخطوات واثقة، لكن لا شي يمكن له أن يكون بسيطاً. عند الاقتراب منها كان عليه أن يبطئ، راح قلبه يدقّ

Twitter: @ketab_n

أكثر فأكثر، كسينفونية حقيقية نقابوية[24]. تساءلت ناتالي بينها وبين نفسها ما الذي يمكن أن يحدث. والحق يقال أنها شعرت بشيء من الخشية، مع ذلك، كانت تعلم تماماً أن ماركوس هو اللّطف بعينه. ما الذي يريده؟ لماذا لا يتحرّك؟ كان جسمه أشبه بكومبيوتر يحمل ويجرّ بإفراط الكثير من المعطيات، وكانت بياناته عاطفية. نهضت وسألته:

– ما الذي يجري ماركوس؟

– .....

– هل كل شيء على ما يرام؟

نجح في العودة إلى التركيز فيما جاء لأجله. أمسكها فجأة من وسطها، وقبّلها بقوّة لم تكن لتخطر على باله هو، وقبل أن تجد الوقت الكافي للرّد، كان قد غادر المكتب.

- 50 -

ترك ماركوس خلفه ذلك المشهد الغريب لقبلة مسروقة. أرادت ناتالي أن تعود لتغرق في ملفها الجديد، لكنها قررت أخيراً أن تذهب للبحث عنه. شعرت بشيء ما عصيّ على الشرح وغير مفهوم. لنقل بالأحرى، أنها كانت تلك هي المرّة الأولى التي يأخذها

---

[24] نقابوية: مؤيدة للحركة النقابية.

Twitter: @ketab_n

أحدهم بلهفة بهذه الطريقة، دون أن يعتبرها إنسانة هشّة. نعم، كان هذا مفاجئاً، لكنها كانت قد اضطربت من تلك الحركة السريعة كالبرق، من رجولة تقريباً شرسة. سارت في ممر الشركة وهي تسأل يمنة ويسرة الموظفين الذين تصادفهم في طريقها عن مكانه، لم يكن أحد يعرف أين هو، فهو لم يرجع إلى مكتبه، عندئذٍ فكرت في سطح المبنى. في هذا الفصل لا أحد يذهب إلى هناك لأن الطقس يكون بارداً جداً. قالت في نفسها لابدّ أنه سيكون هناك. وكان حدسها صائباً. فقد كان هناك قرب الحافّة، في وضعية ساكنة تماماً، يقوم ببعض الحركات الصغيرة بشفتيه، لابد وأنها كانت لهاثاً، يمكننا القول أنه كان تقريباً كمن يدخن لكن دون سيجارة. اقتربت ناتالي منه بصمت وقالت:

– أنا أيضاً غالباً ما ألجأ إلى هذا المكان، كي آخذ نفساً.

دُهش ماركوس بهذا الظهور المفاجئ. لم يكن يحلم أبداً أنها قد تأتي للبحث عنه بعد كل ما حصل وجرى.

– ستصابين بنزلة برد. أجابها. وليس معي حتى ولا معطف كي أقدّمه لك.

– حسن إذاً، سوف نصاب نحن الاثنين بالبرد. إنها على الأقل حالة من التماثل لا يكون فيها اختلاف بيننا.

– هذا خبثٌ.

– كلا، هذا ليس خبثاً، ولا أكون خبيثة إن أنا تصرّفت كما فعلت... أخيراً، حسناً... مع ذلك، هذا لا يعني أني قد ارتكبت جرماً ما!

Twitter: @ketab_n

– إذاً أنت لا تعرفين شيئاً عن الأمور الحسية. قبلة منك، ومن ثم لاشيء، كأن شيئاً لم يحدث، بالطبع هذا جرم. ففي مملكة القلوب الجّافة سوف تحاكمين.

– في مملكة القلوب الجافة؟... ليس من عادتك التّحدث معي بهذه الطريقة.

– بالطبع لن أنظم لك القصائد وأنا أعمل في الملف 114.

كان البرد يغير لون وجهيهما ويفاقم من الظلمة. أصبح وجه ماركوس تقريباً أزرق، هذا كي لا نقول باهت اللون. بينما غدت ناتالي شاحبة كما الأميرة المصابة بوهن عصبي.

– من الأفضل أن نعود. قالت له.

– نعم... وماذا نفعل بعد ذلك؟

– لكن... هذا يكفي الآن... لا يوجد شيء آخر لنفعله. ها أنا قد اعتذرت. لن نعمل من هذا الموضوع رواية مع ذلك.

– لم لا؟ ليس لا مانع لدي من قراءة رواية مشابهة.

– حسناً لنتوقف، فأنا حتى لا أعرف ما الذي أفعله بحديثي معك هنا.

– موافق، لنتوقف. لكن بعد العشاء.

– ماذا؟

– نتعشى معاً، ومن ثم أعدك أننا لن نعود لنتحدث مطلقاً بهذا الموضوع.

– لا أستطيع.

– أنت مدينة لي بذلك... فقط عشاءً واحد»

Twitter: @ketab_n

بعض الأشخاص يملكون قدرة غير طبيعية عند لفظ جملة كهذه، قدرة يقف الآخر أمامها عاجزاً عن الرفض. شعرت ناتالي بصوت ماركوس كل ما قدمه من الإدانة، وكانت تعلم تماماً أنه من الخطأ أن توافق. كانت تعرف أنها هي من يجب عليها الانسحاب الآن، قبل فوات الأوان. لكن، أمامه، أصبح الرفض مستحيلاً. إلى جانب أنها كانت تشعر بالبرد الشديد.

- 51 -

معلومات ملموسة بشأن الملف 114

تتعلق بتحليل مقارن بين فرنسا والسويد، والنظام المتّبع في الوسط الريفي، وموازين التجارة الخارجية، على فترة تمتد من تشرين الثاني عام 1967 إلى تشرين الأول من عام 1974.

- 52 -

عاد ماركوس إلى بيته، وراح يلف ويدور أمام مرآته. كيف علينا أن نلبس عندما نكون على موعد مع ناتاليٍ؟ كان يريد أن يلبس على طراز 31، لا، هذا الرقم كان صغيراً عليها. كان يريد أن

Twitter: @ketab_n

يرتدي على الأقل على طراز 47 أو 112، أو 387.

تاه في الأرقام كي ينسى السؤال الأهم: هل يجب عليه ارتداء ربطة عنق؟ لم يكن لديه أحد ليساعده، كان وحيداً في هذا العالم، والعالم كله كان عبارة عن ناتالي. عادة ما يكون واثقاً من اختياره لثيابه، لكنه كان يضيع في باقي الأمور، ولم يكن يعرف حتى اختيار الحذاء المناسب، في الحقيقة، لم يكن معتاداً على ارتداء ثيابه كي يخرج في المساء. ومن ثم، فإن الوضع حساس، كونها رئيسته في العمل، وهذا ما زاد الطين بلّة. أخيراً استطاع أن يسترخي قائلاً في نفسه بأن المظهر ليس هو المهم بالضرورة، بل يجب عليه قبل أي شيء أن يبدو هادئاً، ويبدأ بحوار مريح حول مواضيع مختلفة. المهم ألا يتحدث أبداً عن العمل، وممنوع منعاً باتاً التطرق إلى الملف 114، كما يجب عليه ألا يجعل ظلال بعد الظهر يخيم على أمسيته. لكن، عن ماذا يجب عليه التحدث إذن؟ لا نستطيع هكذا أن نغير الأجواء بكل بساطة، وإلا سنبدو كما الجزارين في مؤتمر للنباتيين. كلا، فهذا عبثي. ربما كان من الأفضل إلغاء هذا الموعد. لم يزل الوقت مبكراً للاعتذار بمشكلة ما خارجة عن إرادته. «نعم، أنا آسف يا ناتالي، كنت أحب كثيراً أن نلتقي، وأنت تعرفين ذلك جيداً، لكن اليوم يصادف ذكرى وفاة أمي». أوه لا، إنه عذر عنيف جداً، ويشبه كثيراً كتاب «كامو»[25] لم تكن حجة «كامو» مقنعة، ربما كان «سارتر» أفضل: «لا أستطيع

---

[25] كامو في كتابه «*الغريب*» الذي يبدأ بالجملة «اليوم ماتت أمي».
سارتر: إشارة إلى كتابه «*الجحيم هو الآخر*».

Twitter: @ketab_n

هذا المساء، أنت تعرفين، فالجحيم هو الآخر» مع رنّة صوت وجودية. سوف يجري هذا الأمر بسهولة.

بينما هو يهذي تساءل إن لم تكن هي الأخرى تبحث عن عذر كي تلغي موعدها معه في اللحظة الأخيرة. لكن حتى الآن لم يحصل شيء من هذا. كان موعدهما بعد ساعة، ولم يكن قد تلقى أي اتصال بعد. من المؤكد أنها ما زالت تبحث عن سبب، أو لربما كان لديها مشكلة ما في بطارية هاتفها المحمول، وعليه، لم يكن باستطاعتها الاتصال لتخبره بأن هناك ما يمنعها عن الحضور. تابع هكذا في غزل أفكاره، وبما أنه لم يتلق أي اتصال، خرج وهو يشعر أنه قد انتهى من مهمة فضائية.

- 53 -

اختار مطعماً إيطالياً، غير بعيد عن منزله. كان لطفاً منها أن تقبل دعوته للعشاء، لهذا فهو لا يريد أن يجعلها تجتاز المدينة حتى تصل إلى المطعم. وبما أنه كان قد وصل مبكراً، فقد جلس في المقهى المقابل وطلب كأسين من الفودكا، يأمل أن يستمدّ منهما الشجاعة، والقليل من الثمالة أيضاً. لكن الكحول لم يؤتِ بثماره، فذهب ليجلس في المطعم. حينها، وهو في منتهى اليقظة اكتشف أن ناتالي كانت دقيقة في موعدها،عندئذ فكر كم هو سعيد أن يكون صاحياً، لا ثملاً. لم يكن يرغب أن يخرب عليه السكر متعة

Twitter: @ketab_n

ظهورها. تقدّمت نحوه... كانت جميلة جداً... من ذاك النوع من الجمال الذي يجعلك تضع نقاط تعجّب في كل مكان... لم يلبث أن فكّر بأنه لم يسبق له رؤيتها مساءً. كان تقريباً مندهشاً من إمكانية وجودها في لحظة كهذه، فهو من ذلك النوع الذي يعتقد أن الجمال يوضع في علبة ويُغلق عليه في الليل. يجب عليه في الوقت الحاضر عدم الاعتقاد بهذا، بما أنها كانت ها هنا، أمامه.

نهض كي يسلّم عليها. لم يسبق أن لاحظ أنها طويلة بهذا القدر. يجب القول أيضاً أن موكيت الشركة يضغط قليلاً الموظفين. ففي الخارج يبدو الجميع أكثر طولاً، وسيبقى لزمن طويل يتذكّر هذا الإحساس الأول بالعظمة.

لم يتمالك ماركوس نفسه عن القول: «شكراً لأنك أتيت.

– عفواً

– لا... حقّاً أعرف أنك تعملين كثيراً... خاصّة في هذه الفترة... وبالملف 114».

رمقته بنظرة، فبدأ يضحك لشعوره بالإحراج.

«أخذت عهداً على نفسي بعدم التكلّم عن الملف... يا إلهي، كم أنا سخيف».

ابتسمت ناتالي بدورها. كانت هذه هي المرّة الأولى بعد موت فرنسوا التي تجد نفسها في موقف يتوجّب عليها فيه أن تُطمئن أحداً ما. وهذا ما أراحها. كان في انزعاجه شيء مؤثّر. تذكّرت العشاء مع شارل، والثقة التي كان يبديها، فشعرت بأنها على سجيتها أكثر الآن، وهي تتناول العشاء مع رجل كان ينظر إليها كما لو أنه ينظر إلى رجل سياسي قد حقّق نصراً في انتخابات لم

Twitter: @ketab_n

يتقدّم إليها أصلاً.

«من الأفضل ألا نتحدّث عن العمل». قالت له.

– إذاً عن أي شيء سنتكلّم؟ عن أطعمتنا المفضلة؟ فحاسّة التذوّق هي أفضل ما يمكن أن نبدأ به الحديث.

– نعم... في الحقيقة، مجرّد التفكير عما يمكننا التحدث به غريب قليلاً.

– يبدو لي البحث عن موضوع للحوار هو الموضوع المناسب للبدء بالحوار.

أحبّت هذا التعبير والطريقة التي تلفظ به. فاستطردت تقول:

– الحقيقة أنت مضحك.

– شكراً، هل يبدو علي أني مثير للضحك إلى هذه الدرجة؟

– نعم، بعض الشيء. قالت له وهي تبتسم.

– لنعد إلى موضوعنا الأساسي، عن أذواقنا في اختيار الطعام، فذلك أفضل.

– سأقول لك شيئاً، أنا لم أعد أفكر أبداً بما أحب أو بما لا أحب.

– هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟

– تفضّل.

– هل أنت من النوع المتعلّق بالذكريات؟

– كلا، لا أعتقد ذلك.

– هذا أمر نادر لمن تدعى ناتالي.

– آه، حقّاً؟

– نعم، فكل من تدعى ناتالي يكون لديها نزعة واضحة للحنين.

Twitter: @ketab_n

ابتسمت من جديد. لم تكن تلك عادتها. لكن تعابير هذا الرجل كانت دوماً مربكة. لم يكن بالإمكان التكهّن بما سوف يقوله. فكرت بأن كلماته موجودة في رأسه كما طابات اليانصيب قبل خروجها. هل يملك نظريات أخرى حولها؟ الحنين للذكريات. تساءلت بجديّة عن علاقتها بالذكريات. لقد دفعها فجأة ماركوس إلى أن ترتمي في صور ذكريات الماضي. فكرت لاشعورياً في صيف كانت لم تزل فيه في الثامنة من العمر، عندما سافرت مع أهلها إلى أميركا، وقضوا هناك شهرين رائعين متجولين ضمن مساحات الغرب الشاسعة. اتسمت تلك العطلة بشغف واحد: سكاكر Pez[26] تلك الحبّات الصغيرة من البونبون التي يضعونها في علب صغيرة تمثّل أشكالاً مختلفة. يكفي الضغط على رأسها حتى تعطيك تلك العلبة حبّة من السكاكر. هذه العلبة، هي ما ميّزت هوية ذاك الصيف. لم تعد أبدا ترى مثلها. كانت ناتالي تستحضر تلك الذكرى وتقصّها عليه لحظة ظهر النادل:

سألهما: هل اخترتما؟

– نعم، قال ماركوس، سوف نأخذ اثنين من «الريزيتو»[27] مع الهليون، وللتحلية سوف نأخذ Pez.

– ماذا؟ سأل النادل متعجّباً

– نريد Pez.

– ليس لدينا من... Pez يا سيدي.

– يا للأسف. ختم ماركوس كلامه.

---

[26] Pez: علبة صغيرة بأشكال شخصيات مختلفة للأطفال تحتوي على أقراص صغيرة من السكاكر.

[27] ريزيتو: طبق من الأرز مطبوخ مع الزعفران ويُقدّم مع الجبن.

Twitter: @ketab_n

غادر النادل وهو منزعج قليلاً. ففي أعماقه يسير المعنى المهني والمعنى الهزلي بخطّين متوازيين. لم يكن يفهم ماذا تفعل امرأة كهذه مع رجل كهذا، بالتأكيد هو أحد منتجي الأفلام، وهي ممثلة. لابد من وجود سبب مهني قاهر ليجعل امرأة مثلها تتناول العشاء مع ظاهرة ذكورية غريبة كهذه. ثم، ما هي قصّة Pez تلك؟ لم تعجبه على الإطلاق تلك الإشارة إلى المال، هو يعرف جيداً تلك الأنواع من الزبائن التي تمضي وقتها من تقليل شأن خدم المطاعم. سوف لن يدع شيئاً من هذا القبيل يحدث.

شعرت ناتالي أن هذه الأمسية بدأت تأخذ منعطفاً ساحراً، وكان ماركوس يسلّيها:

«هل تعلم أن هذه هي المرّة الثانية التي أخرج فيها منذ ثلاث سنوات.

– هل تريدين أن تضيفي على الضغط ضغطاً آخر؟

– بالطبع لا، فكل شيء على ما يرام.

– ذلك أفضل بكثير. سأبذل جهدي كي تمضي أمسية جيدة. وإلا فإنك سوف تعودين لتغرقي في السبات مرّة أخرى»

كان هناك الكثير من البساطة بينهما. شعرت ناتالي بالراحة، فلم يكن ماركوس صديقها، ولا شخصاً تفكّر معه بعلاقة إغواء. كان عبارة عن عالم مريح، عالم ليس له أي علاقة بماضيها. وهكذا فقد اجتمعت كل الشروط الأساسية لأمسية مريحة وغير مؤلمة.

Twitter: @ketab_n

- 54 -

العناصر الأساسية لمكونات «الريزيتو مع الهليون»

200 غرام من رز الأربوريو (الرز المدوّر)

500 غرام هليون

100 غرام صنوبر

بصلة واحدة

20 سل من النبيذ الأبيض المز.

10 سل من الكريما السائلة.

80 غرام من جبنة البارميزان المبروشة

زيت البندق

ملح، بهار

لأجل غطاء من جبنة البرميزان

80 غرام من البرميزان المبروش

50 غرام من الصنوبر

ملعقتان من الطحين

بضع قطرات من الماء

Twitter: @ketab_n

- 55 -

غالباً ما كان يراقبها، كان يحب أن يراها وهي تسير في الممرّات بلباس رسمي يصل حتى الأرض، تداخلت فكرة صورتها الخيالية مع صورتها الحقيقية، فهو قد عرف ـ كالجميع ـ بمعاناتها. بالرغم من ذلك، لم يكن يرى فيها إلا ما كانت تظهره هي عن نفسها: صورة امرأة مطمئنة جداً وواثقة من نفسها. باكتشافه المفاجئ لها في إطار آخر لم تكن تظهر به غالباً، شعر أن بإمكانه الوصول إلى هشاشتها. كانت ـ بشكل طفيف، ولكن سريع كالبرق ـ تخفّف من حرصها، وكلما كانت تسترخي كلما كانت تبدو على طبيعتها الحقيقية، كان يبدو ألمها وضعفها متناقضين مع ابتسامتها. بدأ ماركوس، وبشكل متأرجح، يتولى القيام بدور القوي، تقريباً دور الحارس الأمين. كان يبدو أمامها مزوحاً وحيوياً، وحتى قويّاً. أراد لو أنه قد عاش حياته كلها بحيوية هذه الدقائق، وبمظهره كرجل قادر على أن يمسك بزمام الأمور، لم يكن بمقدوره ارتكاب أية هفوة. ارتبك بنوع النبيذ عندما طلب زجاجة ثانية منه. تظاهر بأنه يعرف اسمه ولم يتردد النادل في أن يرمقه بنظرة أعادت إليه جهله بالاسم. كانت هذه عبارة عن ثأر بسيط سبّب ضيقاً عميقاً لماركوس حتى اللحظة التي جلب النادل الزجاجة فتجرأ وقال له: «آه شكراً يا سيدي، نحن فعلاً نشعر بالعطش، سوف نشرب نخب صحتك.

Twitter: @ketab_n

– شكراً هذا لطف منكما.

– لا، هذا ليس بلطف. فهناك تقليد في السويد يقول أن باستطاعة كل منا تغيير مكانه ساعة يشاء، وأن لا شيء ثابت، وأنك أنت الواقف هنا، بإمكانك أن تكون ذات يوم جالساً مكاني، أي بمعنى آخر، إن أردت سأنهض الآن تاركاً لك مكاني».

نهض ماركوس فجأة، ولم يعرف النادل كيف يتصرّف. ابتسم حرجاً، وترك الزجاجة. بدأت ناتالي تضحك دون أن تفهم تماماً تصرّف ماركوس. لكنها أحبت هذا الاندفاع الهزلي. فأن يترك ماركوس مكانه للنادل كانت الطريقة المثلى لجعل هذا الأخير يعرف حدوده. كانت تستمتع بما كانت تعتبره لحظة شعرية. ووجدت بأن لدى ماركوس جانباً صغيراً من جوانب البلاد الشرقية. كان هناك جزء روماني أو بولوني في تركيبته السويدية. «هل أنت واثق أنك سويدي؟ سألته

– كم أنا سعيد بهذا السؤال، لا يمكنك أن تتصوري ذلك، فأنت أول شخص يشكّ بأصولي... أنت فعلاً رائعة.

– إلى هذا الحد من الصعوبة أن نكون سويديين؟

– لا يمكن أن تتصوري. عندما أعود إلى هناك يقول الجميع عني بأني مُهرّج، هل تتخيلين ذلك؟ هل أنا مثيرٌ للضّحك حقّاً؟ بالفعل.

في السويد أن تكون وقوراً هو المطلب».

استمرّت الأمسية بهذه الطريقة، تتناوب فيها لحظات بين المكاشفة والاسترخاء منحت كل واحدة شعوراً بمعرفة الآخر، كانت قد قررت العودة باكراً إلى المنزل، وها هي الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، من حولهما، كانت الرواد يغادرون، حاول النادل

Twitter: @ketab_n

أن يجعلهما يفهمان بطريقة فظّة أن الوقت قد حان للتفكير بالمغادرة. نهض ماركوس كي يذهب إلى الحمام، ودفع الحساب. حدث هذا بطريقة راقية جداً. عندما أصبحا في الخارج اقترح عليها أن يرافقها في سيارة الأجرة. كان ودوداً. أمام منزلها، وضع يده فوق كتفها وقبّلها قبلة على وجنتها. أدرك في تلك اللحظة ما كان يعرفه جيداً: لقد كان مغرماً بها حدّ الجنون. لاحظت ناتالي أن كل لفتة من لفتات هذا الرجل كانت تتصف بالرّقة. كانت حقّاً سعيدة بالوقت الذي أمضته بصحبته. استطاعت أن تبعد تفكيرها عن أي شيء آخر، أرسلت إليه ـ وهي مستلقية بفراشها ـ رسالة نصيّة على هاتفه المحمول كي تشكره و من ثم أطفأت النور.

- 56 -

الرسالة النصيّة المرسلة من ناتالي إلى ماركوس بعد أول عشاء لهما:
«شكراً لك على هذه الأمسية الحلوة».

- 57 -

أجاب ماركوس ببساطة «شكراً لك لأنك جعلتها حلوة».

Twitter: @ketab_n

كان يرغب أن يجيب بطريقة أكثر ابتكاراً، أكثر مرحاً، أكثر حيوية، أكثر شاعرية، بطريقة أكثر أدبية، وأكثر وردية. لكن في النهاية كان هذا ملائماً لروح اللحظة، وهو في سريره كان يعلم تماماً أن النوم سيجافيه، فكيف السبيل إلى الذهاب نحو الحلم عندما نكون قد عدنا منه للتو.

استطاع أخيراً النوم قليلاً، لكن شعوراً بقلق ما أيقظه، فعندما يسير الموعد بشكل حسن، نصبح مجانين من الفرح، ومن ثم، شيئاً فشيئاً يدفعنا إدراكنا إلى التساؤل بما سوف يحدث بعد ذلك. لكن إن جرت الأمور بشكل سيء، فعلى الأقل سيكون الأمر واضحاً وهو أننا لن نلتقي مجدداً، لكن هنا، وفي وضع كهذا، ما العمل؟ فكل التطمينات والتأكيدات التي حصل عليها أثناء العشاء كانت قد تبخّرت أثناء الليل وتبعثرت: كان يجب عليه ألا يغلق عينيه أبداً، فقد أصبح هذا الشعور حقيقياً من وراء تصرّف بسيط.

في اليوم التالي، وفي الساعات الأولى من النهار، التقيا في الممر. كان أحدهما يسير باتجاه جهاز القهوة والآخر عائد من هناك. بعد أن تبادلا ابتسامة مرتبكة، تبادلا تحيّة الصباح، بخفّة مصطنعة. كانا هما الاثنين غير قادرين على قول أي كلمة زيادة، أو إيجاد أي طرفة سريعة التأثير يفتتحان بها موضوعاً للحديث. لم يحدث شيء من هذا، لاشيء على الإطلاق، حتى ولا إشارة عن الطقس، أو الحديث عن الغيوم، عن الشمس، لا، على الإطلاق، ولم يكن هناك أمل لتحسين هذا الوضع. غادرا عند هذه النقطة من الضيق والإرباك، لم يكن لديهما أي موضوع للحديث. يسمي البعض هذه

Twitter: @ketab_n

الحال «بالفراغ الفلكي» لضربة الصاعقة.

حاول ماركوس وهو في مكتبه أن يطمْئن نفسه. من الطبيعي ألا نكون دوماً ضمن الكمال، فالحياة هي في الغالب لحظات من الكتابة الأولية، من شطبة قلم، ومن اللاشيء. فشكسبير لم يُظهر إلا اللحظات القوية لشخصياته. من المؤكد أن لحظة التقى روميو وجولييت في الرواق صباح اليوم الثاني لسهرة جميلة، لم يجدا شيئاً يتحدثان به. كل هذا لم يكن بالأمر الهام. كان يجب عليهما التفكير بما هو آتٍ، هذا هو المهم. باستطاعتنا القول أنهما قد خرجا من هذا المأزق بشكل جيد. عاد مرّة أخرى ليمتلئ بأفكار سهرة الأمس، وبالأحاديث الليلية. سجّل كل شيء على ورقة كبيرة. بدا ذلك كمخطط هجوم. ففي مكتبه الصغير، لم يعد هناك وجود للملف 114، كان هذا الملف قد حُذف أمام ملف ناتالي. لم يكن يعرف لمن يفتح قلبه، ولا ممن يطلب نصيحة. كان لديه بالفعل بعض الزملاء الذين يرتبط معهم بعلاقات طيبة، بالأخص مع «بيرييه». فقد كانا يتبادلان من وقت إلى آخر البوح ببعض الأسرار التي كانت تتضمن بعض النواحي الحميمية. لكن فيما يخص ناتالي، لم يكن هذا وارداً أبداً. يجب حبس شكوكه في الصمت. كان باستطاعته سجنها في الصمت لكن كان يخشى من قلبه، وهو يطرق بشدة أن يفضح أمره.

استشار كل مواقع الانترنت التي تقدم بعض الاقتراحات لبعض السهرات الشاعرية، كنزهات في السفينة (لكن الطقس بارد) أو أمسية في المسرح (لكن غالباً ما كنا نشعر بالحرّ الشديد هناك). لم

Twitter: @ketab_n

يجد أي إثارة في أي من تلك المقترحات، كان يخشى أن يبدو الأمر إما شديد التفخيم، أو شديد البساطة. بمعنى آخر، لم يكن لديه أي فكرة حول ماذا كانت تريد ناتالي، ولا بماذا كانت تفكر، وإن كان هذا هو الأمر فعلاً، فهي إذاً لن ترغب في أن تراه مرّة أخرى. لقد وافقت أن تتناول العشاء معه مرة، قد يكون هذا كل شيء، وقد عملت على أن تمضي الأمور بشكل حسن، وانتهى الأمر. فالوعود لا تُقطع إلا لحظة الوعد. لكن مع ذلك شكرته على تلك السهرة الحلوة. نعم، لقد كتبت كلمة «حلوة»، غرغر ماركوس بهذه الكلمة، وهذا لم يكن بالشيء الفارغ، أمسية حلوة. كان بإمكانها أن تكتب «سهرة طيبة» لكن لا، لقد فضّلت عنها كلمة «حلوة». جميلة هي كلمة «حلوة» هذه. بالفعل، يا لها من أمسية حلوة، كما لو كانا في زمن الأثواب الطويلة والعربات... «لكن ما الذي أفكر به» قال في نفسه، واهتاج فجأة. يجب عليه التصرّف وليتوقّف عن التخيل. نعم، كانت جميلة جداً تلك الكلمة «حلوة» وهذا ما أعطاه دفعاً للأمام، الآن يجب عليه التقدم والمتابعة. آه، لقد كان فعلاً يائساً. لم يكن يملك أي فكرة. فاسترخاؤه بالأمس لم يكن أكثر من استرخاء الليل، نوع من الوهم. عاد ليسترجع حالته البائسة كرجل عادي دون أي تميز، رجل لا يملك أي فكرة لترتيب موعد ثانٍ مع ناتالي.

طرق أحدهم الباب. قال ماركوس «تفضّل» لم يكن الشخص الذي ظهر أمامه غير تلك التي كتبت تقول أنها قد أمضت أمسية حلوة معه. نعم، إنها ناتالي لقد كانت هنا، بلحمها وشحمها.

Twitter: @ketab_n

«هل أنت بخير؟ هل أضايقك؟ يبدو عليك التركيز الشديد.

– أوه... لا... أنا بخير

– كنت أريد أن أقترح عليك مرافقتي غداً إلى المسرح... لدي بطاقتان... فإن كان هذا...

– أنا أعشق المسرح، بكل سرور.

– حسناً إذن، نلتقي غداً مساءً. «همس بدوره إلى اللقاء غداً مساءً». جاء همسه بعد فوات الأوان. فقد طار الجواب في الهواء، منزعجاً، كونه لم يمتلك الأذن الصاغية كي تعيده إلى الأرض. كان كل جزء صغير فيه يزغرد، ووسط مملكة النشوة تلك راح قلبه يتقافز فرحاً في جسده.

والغريب في الأمر، أن هذه السعادة قلبت طبعه من المرح إلى الجدّ. راح يتأمل كل شخص داخل كل عربة من عربات قطار الأنفاق، كل هؤلاء المقيدين بالروتين اليومي، لم يعد يشعر بالفعل أنه مجهول بينهم. بقي واقفاً، و، شعر أكثر من أي وقت مضى، بعشقه للنساء. عندما وصل إلى منزله، تابع حركاته الروتينية، غير أنه بالكاد كان يشعر بالرغبة في تناول الطعام. تمدّد فوق سريره، حاول قراءة بعض الصفحات، ومن ثم أطفأ النور. لكن ما حدث هو أن النوم جافاه تماماً كما حصل بعد القبلة الأولى لناتالي التي كانت قد أبعدت عنه النوم.

Twitter: @ketab_n

- 58 -

عينة من المواد المستخلصة لدواء «غورونسان»[28]
«يوصف لحالات الوهن العابر للبالغين».

- 59 -

مضى اليوم دون حدث يـذكر. كـان هنـاك اجتمـاع للمجموعـة، جرى كل شيء بشكل طبيعي، لم يكن باستطاعة أحد أن يخمّن أن ناتالي سوف تذهب هذا المساء إلى المسرح مـع مـاركوس، وإلا كـان سيشـكل هـذا الحـدث موضـوعاً رائعـاً علـى المسـتوى العـاطفي، فالموظفون مولعون بامتلاك الأسرار، وببناء علاقات سـرّية، والعـيش بطريقة خفية، بشكل لا يكون بمقدور أحد معرفتهـا. هـذا مـا كـان يضـيف التوابـل علـى العلاقـة الـتي يقيمونهـا في المنشـأة. بيـد أن ناتـالي، كانـت تملـك القـدرة لتفصـل بـين الأشـياء، فقـد جعلتهـا مأساتها فاقدة الإحساس لبعض الأمور. أو بمعنى أدق، كانت تـدير الاجتماع بطريقة آلية، متناسية تقريباً أن اليوم سوف يُفتتح بأمسية

---

[28] Guronsan: دواء يحوي فيتانيم C+ الكافيين يوصف كمضاد للوهن والشـعور بالتعب.

Twitter: @ketab_n

مع ماركوس الذي يرغب بشدّة أن يرى في نظرتها بعض الاهتمام الخاص، إشارة ما لاتفاق ضمني، لكن هذا كله كان يدخل ضمن آلية عملها. والأمر نفسه جرى بالنسبة لكلويه التي كانت ترغب في بعض الأحيان أن تُشعر الآخرين أن لها خاصية ما عند رئيسة عملها. فقد كانت الوحيدة التي تقضي أوقاتاً تستطيع من خلالها الخروج من ضمير الجمع (أنتم) مع ناتالي، لتدخل ضمن لفظة المفرد (أنت). بعد هروب هذه الأخيرة من المقهى، لم تحاول كلويه أن ترتب أي موعد لخروج آخر. كانت تدرك الخطورة التي تنطوي عليها لحظات كهذه: فأن تكون الشاهد على هشاشة رئيستها في العمل من شأنه أن ينقلب ضدها. لهذا فقد كانت شديدة الحرص على ألا تخلط بين الأمور، وأن تحترم تماماً التسلسل الهرمي. عند نهاية الدوام، ذهبت كلويه لترى ناتالي وبادرتها قائلة: «هل أنت بخير؟ نحن لم نتحدث كثيراً مذ كنا معاً المرة الفائتة.

– نعم، إنها غلطتي كلويه، لكن مع هذا، فقد قضيت حقاً وقتاً ممتعاً.

– أه حقاً؟ غادرت بعصبية، وكان وقتاً ممتعاً؟

– نعم، أؤكد لك ذلك.

– فليكن إذاً... هل تريدين، نعود للخروج هذا المساء؟

– أه، لا متأسفة، لا أستطيع. فأنا سأذهب للمسرح».

قالت ناتالي هذا بطريقة من يعلن ولادة طفل أخضر اللون. لم ترغب كلويه أن تبدو متفاجئة، لكن كان هناك فعلاً ما يستحق التوقف عنده. من الأفضل عدم الإشارة لطابع إعلان حدث كهذا، بل التصرّف كأن شيئاً لم يكن؟ عندما عادت كلويه إلى مكتبها،

Twitter: @ketab_n

بقيت فترة كي ترتّب الفقرات المتبقية للملف الذي بين يديها، ألقت نظرة على رسائلها الالكترونية ومن ثم ارتدت معطفها كي تغادر. وبينما هي متجهة نحو المصعد صُدمت بمنظر غير قابل للتصديق: كان ماركوس وناتالي يغادران معاً. اقتربت منهما دون أن يتمكنا من رؤيتها واعتقدت أنها قد سمعت كلمة مسرح. شعرت للحال بشيء ما لم يكن باستطاعتها تحديده. شيء يشبه الانزعاج، لا بل حتى الاشمئزاز.

- 60 -

في المسرح، كانت المقاعد قريبة جداً من بعضها، وكان ماركوس يشعر فعلاً بعدم الارتياح، وأسف كونه يملك تينك الساقين الطويلتين، لكن أسفه كان بلا جدوى على الإطلاق[29]. هذا إذا ما وضعنا باعتبارنا أمراً آخر كان يسبب عذابه، فليس هناك أسوأ من الجلوس قرب المرأة التي نشتهي حتى الموت النظر إليها. فالعرض كان على يمينه وليس على خشبة المسرح، زيادة على ذلك فماذا كان يرى؟ لم يكن هذا يثير اهتمامه أكثر من ذاك، خاصّة أن العرض كان عبارة عن مسرحية سويدية! أتراها تقصّدت فعل ذلك؟ بالإضافة إلى ذلك فقد كان كاتب المسرحية قد درس في «أوبسالا».

---

[29] ذلك لأنه ليس بالإمكان استئجار ساقين قصيرتين (الكاتب).

Twitter: @ketab_n

شعر كما لو كان ذاهب ليتناول العشاء عند والديه، كان ذهنه مشتتاً للغاية بحيث بقي عاجزاً عن فهم عقدة المسرحية التي لابدّ سيتحدّثان عنها فيما بعد، وسيبدو كالأحمق. كيف كان باستطاعته إهمال هذا التفصيل؟ كان يجب عليه التركيز تماماً وتجهيز بعض التعليقات المعقولة.

مع ذلك، فقد فوجئ عند نهاية العرض بإحساسه بالارتياح. قد يكون مردّ ذلك إلى جذوره السويدية. كان يبدوعلى ناتالي أيضاً السعادة، من الصعب أن نعرف: فأحياناً يبدو الناس سعداء، لسبب بسيط وهو أن المعاناة قد انتهت أخيراً. عندما أصبحا في الخارج أراد ماركوس أن يخوض في الأفكار التي راكمها خلال المشهد الثالث لكن ناتالي قاطعته قائلة: «أعتقد أنه يجب علينا أن نحاول الاسترخاء الآن» فكر ماركوس أنها تقصد الاسترخاء لقدميه، لكن ناتالي أوضحت بقولها: «هيا بنا نشرب كأساً».

هذا إذن ما قصدته بالاسترخاء.

- 61 -

مقتطفات من كتاب الآنسة جولي للكاتب «أوغست ستراندبرك»[30]

---

[30] August Strinbreg: كاتب وشاعر سويدي 1912–1949 أشهر أعماله الآنسة جولي.

Twitter: @ketab_n

نقلها للفرنسية «بوريس فيان»[31] وهي المسرحية التي شاهدها ماركوس وناتالي في لقائهما الثاني.

الآنسة: هل من المفترض عليّ أن أطيعك؟

جان: لمرّة واحدة فقط، هذا لمصلحتك! أرجوكِ! فقد تقدّم الليل، والنعاس يجعلنا في حالة من السكر، فتدار الرؤوس.

- 62 -

أثناء العشاء، حصل شيء ما حاسم، حدثٌ غير ذي أهمية لكنه سوف يأخذ حجم الحدث الكبير. جرى كل شيء تماماً كما الأمسية الأولى وقد فعل الانجذاب فعله، لا بل فقد تطور وازداد. كان ماركوس يرتدي بشكل أنيق محاولاً أن يبتسم الابتسامة الأقل سويدية قدر الإمكان، ابتسامة هي أقرب إلى الابتسامة الإسبانية. كان ينتقل من حكاية ظريفة إلى أخرى، يحدد بذكاء جرعة التلميحات الثقافية، والمراجع الشخصية، ويُجمّع الأفكار للانتقال من الخاص إلى العام، ناشراً حوله بلطف تلك الحالة الجميلة للرجل الاجتماعي لكن، وهو وسط استرخائه، أصيب فجأة بارتباك جعله يدير دفّة الحديث. لقد عاد فشعر بظهور حزن الماضي لدى ناتالي.

---

[31] Boris Vian: 1920– 1959. كاتب فرنسي امتهن كل الأعمال الأدبية بما فيها الاقتباس للمسرح والسينما.

Twitter: @ketab_n

في البداية، كانت عبارة عن بقعة صغيرة اتخذت شكل حنين، لكن لا، فعند التمعّن أكثر كان باستطاعتنا أن نميّز تماماً خاصيّة الذكريات البنفسجية، وعن قرب أكثر، كان يمكن للمرء أن يستشفّ بوضوح الوجه الحقيقي للحزن، كدفقة مرضية، ومثيرة للشفقة.

تساءل بينه وبين نفسه: لكن لماذا أنا على وشك محاولة الظهور في أحسن حالاتي؟ لمَ أحاول إضحاك هذه المرأة؟ لماذا أنا على وشك أن أقاتل بشراسة لأجل إسعادها، هي البعيدة المنال عني بشكل جذري؟

انقضّ عليه ماضيه فجأة كرجل غير واثق من نفسه. ولم يكن هذا كل شيء، فقد عزّز هذا التطور العودة للماضي بشكل مأساوي من قبل حادث آخر، فقد قلب كأس النبيذ الأحمر خاصّته فوق الغطاء. كان بإمكانه أن يرى في هذا الحدث مجرد تصرّف أخرق بسيط، لا بل قد يكون فيه نوع من الجاذبية. فناتالي كانت دوماً سريعة التأثر بالتصرف الأخرق، لكن في هذه اللحظة لم يكن يفكر إطلاقاً بها: كان يرى في هذا العمل التافه إشارة أكثر خطورة من هذا بكثير: ظهور اللون الأحمر. الاجتياح المستمر للون الأحمر في حياته.

«هذا ليس مهماً». قالت ناتالي وهي ترى السّحنة المروعة لماركوس. بالطبع لم يكن كذلك، لم يكن هذا بالمهم، بل كان مأساوياً. فقد أعاده اللون الأحمر إلى بريجيت، إلى رؤية كل هؤلاء النساء اللواتي رفضنه. راحت تطنّ في أذنيه ضحكات سخرية. عاودته كل صور وعكاته: عندما كان طفلاً وكانوا يسخرون منه في

Twitter: @ketab_n

باحة المدرسة، وعندما كان جنديّاً كانوا يغيظونه، ويعتبرونه كسائح من الممكن الاحتيال عليه. هذا ما كان يعنيه له انسكاب الخمر الأحمر فوق الغطاء الأبيض. كان يخيل إليه أن كل الناس تنظر إليه وتتهامس عليه لحظة يمرّ بالقرب منهم. لاشيء كان بإمكانه إيقاف ذلك الانحراف نحو جنون الاضطهاد، انحراف أعلن عنه بالحزن، وبالشعور الساذج لمجرد الاعتقاد أن باستطاعة الماضي أن يكون ملجأً آمناً. في الوقت الحالي، لم يعد للحاضر وجود. أصبحت ناتالي عبارة عن ظل، عن شبح لعالمٍ الأنوثة.

نهض ماركوس وبقي للحظة معلقاً في الصمت. كانت ناتالي تنظر إليه دون أن تعرف ما سوف يقول. هل سيكون ساخراً؟ هل سيكون جدّياً؟ أخيراً، أعلن بلهجة هادئة: «من الأفضل أن أذهب».

– لماذا؟ لأجل النبيذ؟ لكن... هذا يحصل مع كل الناس.

– كلا... الأمر ليس كذلك... إنما...

– إنما ماذا؟ هل أضجرك؟

– لا... بالتأكيد لا... حتى وأنت ميتة لن يكون باستطاعتك إضجاري.

– إذن ما الأمر؟

– إذن لا شيء. الحقيقة أنك فعلاً تعجبينني. أنت تعجبينني فعلاً.

– .....

– ليس لدي إلا رغبة واحدة، وهي أن تعودي وتقبليني من جديد... لكني لا أتخيل نفسي للحظة واحدة أني أعجبك... لهذا، فأنا أعتقد أنه من الأفضل لنا نحن الاثنين ألا نرى بعضنا

Twitter: @ketab_n

بعد الآن. سوف أتألم بالتأكيد، لكن هذا العذاب سيكون ألطف، إن أنا تجرأت على القول...

– هل تفكر دوماً بهذه الطريقة؟

– كيف لا أفكر؟ كيف باستطاعتي أن أكون هنا، أمامك وجهاً لوجه، هكذا بكل بساطة؟ هل باستطاعتك أنت فعل ذلك؟

– أن تكون أمامي؟

– ها أنت ترين ذلك جيداً، من السخف قول ذلك، من الأفضل أن أغادر.

– أحب أن تبقى.

– لماذا؟

– لا أعرف.

– ماذا تفعلين معي، هنا؟

– لا أعرف. ما أعرفه جيداً هو أني أشعر بالراحة معك، وأنك إنسان بسيط... ولطيفٌ معي. وأنا أدرك أنني بحاجة إلى ذلك.

– هل هذا كل شيء؟

– هذا كثير حتى الآن، أليس كذلك؟

- 63 -

غادر ماركوس المقهى تاركاً وراءه ناتالي. في اللحظة التي أصبحت مثالية، لاذ بالفرار. لم تستطع فهم موقفه، كانت تقضي

Twitter: @ketab_n

أمسية جميلة، والآن، ها هي ترغب فيه بشدة دون أن يدري. كان ماركوس قد تصرف ببراعة. فقد جعل ناتالي تصحو، دفعها كي تطرح على نفسها الأسئلة، قال أنه كان يريد تقبيلها، لم يكن الأمر غير هذا إذن؟ ولكن هي، هل لديها الرغبة في ذلك؟ حتى الآن هي لم تكن قد فكرت بالأمر، لم تكن تجده مميزاً، لكن هذا لم يكن مهماً... فلم لا... كانت تجد أن لديه شيئاً ما... ومن ثم هو ظريف، لماذا غادر إذن؟ يا للأحمق، ها هو الآن يفسد كل شيء. كانت تشعر بانزعاج عميق، كم هو أبله، نعم يا للأبله. تابعت التفكير بذلك بينما زبائن المقهى ينظرون إليها، هي المرأة الجميلة جداً، المتروكة من قبل رجل عادي. لم تعر تلك النظرات أي اهتمام، وبقيت في مكانها، جامدة في انزعاجها المحبط كونها لم تسيطر على الموقف، كونها لم تعرف كيف تمنعه، ولا كيف تفهمه. كان يجب عليها ألا تريد هذه الأمسية، لم يعد باستطاعتها فعل شيء، كانت شديدة الإثارة بالنسبة لديه لدرجة لم يستطع فيها البقاء قربها.

عندما عادت إلى منزلها، اتصلت به، لكنها أغلقت السماعة قبل أن يرن الهاتف. رغبت في أن يتصل هو بها. زيادة على ذلك، فهي التي كانت قد قامت بالمبادرة لهذه الأمسية الثانية. كان يستطيع على الأقل أن يشكرها، أن يرسل لها رسالة. كانت تقف هنا، تنتظر أمام هاتفها، وكان هذا يحدث معها للمرة الأولى منذ زمن طويل: الانتظار. لم تكن تستطيع النوم، سكبت لنفسها كأساً من النبيذ، ووضعت موسيقى، .كانت تلك أغنية «آلان شوسون» كانت تحب سماع تلك الأغنية مع فرانسوا، ولم يكن باستطاعتها سماعها

Twitter: @ketab_n

دون أن تذرف الدموع. تابعت الدوران في الصالون، حتى أنها رقصت قليلاً، تاركة للثمالة الحقّ في الدخول إليها بقوّة الوعد.

- 64 -

الجزء الأول من أغنية «*الحب الهارب*»

أغنية آلان شوسون[32] التي سمعتها ناتالي بعد أمسيتها الثانية مع ماركوس:

«مداعبات منطبعة على جلدي الحساس
نستطيع أن نرمي كل شيء، اللحظات، الصور، إنها الحرية،
هناك دوماً شريط لاصق شفاف
للعودة إلى مربع كل هذه العذابات
كنا صورة جميلة، عاشقين وهميين
بنينا عشنا، سعادتنا لم تكن تعنيني
بسرعة، تتشكل قطع الزجاج التي تقطع، وتدمي
وها هي هناك على البلاط، على البورسولان
نحن، نحن، لم نستطع تحمل بعضنا
بو، بو، دموع تسيل فوق وجنتيك

---

[32] Alain sauchon: ممثل ومغني فرنسي.

Twitter: @ketab_n

تركنا بعضنا، لم يعد هناك ما يقال
إنه الحب الهارب
إنه الحب الهارب».

- 65 -

مشى ماركوس كمن يسير على حافة هاوية شاعراً بالفراغ تحت قدميه. عندما عاد إلى بيته، هذا المساء، كان لم يزل مسكوناً بالصور المؤلمة. كل شيء ربما كان مرتبطاً في استريندبرغ؟ يجب على الأرجح تجنب مواجهة الكرب من أبناء بلده. جمال هذه اللحظات، جمال ناتالي، كل ذلك كان ينظر إليه كشاطئ أخير: ألا وهو شاطئ الخراب. كان الجمال هنا، أمامه، ينظر إليه مواجهة في عينيه، مثل إنذار أخير لمأساة، كان فعلاً يجسد موضوع رواية «***الموت في فينيسيا***» بهذه الجملة الرئيسية: «ذاك الذي يتأمّل الجمال مكتوب عليه الموت» ثم نعم ، كان باستطاعة ماركوس أن يبدو مفحماً في حديثه، وحتى غبياً في فراره. لكن يجب علينا العيش لسنوات في الفراغ واللاشيء كي نفهم كيف ينتاب المرء فجأة الخوف من احتمال كهذا.

لم يكن قد اتصل بها، هي التي أحبت فيه جانب البلاد الشرقية، لسوف تُفاجأ عندما تعود لتكتشف فيه الجانب الوقور

Twitter: @ketab_n

والمنظم للسويديين. لم يعد هناك أي جزء بولوني ولو صغير داخله. كان ماركوس قد قرر أن يغلق على نفسه، *وألا يعود مطلقاً للعب بالنار الأنثوية*. أجل، هذه هي الكلمات التي دارت في رأسه. والنتيجة الأولية التي توصّل إليها هي قراره ألا يعود أبداً للنظر مباشرة في عينيها.

في صباح اليوم التالي، عند وصولها إلى المكتب، قابلت ناتالي كلويه. ولنقرّ على الفور أن تلك الأخيرة كانت من أنصار المصادفات المفبركة[33]. فغالباً ما كانت تقطع المر جيئةً وذهاباً فقط كي تلتقي بمديرتها. ومثل بواب حقيقي، ومن دون أي لباقة تذكر، كانت تحاول أن تحصل على بعض الأسرار عنوة.

«أه ، صباح الخير ناتالي. هل أنت بخير؟

– أنا بخير. متعبة فقط قليلاً.

– بسبب المسرحية مساء الأمس؟ هل كانت طويلة؟

– لا، ليس بشكل خاص...».

شعرت كلويه أنه سيكون من الصعب عليها الحصول على المزيد من المعلومات، لكن لحسن الحظ، سوف يقع حدث ما، يسهّل عليها الأمور كلها. فقد كان ماركوس يسير باتجاههما وهو الآخر كان يبدو بحالة غريبة. تصرّفت الشابة بطريقة حاولت فيها إيقافه:

---

[33] نستطيع في النهاية أن نتساءل إن كان هناك فعلاً وجود للصدفة؟ ألا يكون كل هؤلاء الأشخاص الذين نلتقي بهم مصادفة ضمن منطقتنا آملين فقط برؤيتنا؟ بالفعل، فعندما نعاود التفكير بهم يبدون في الغالب لاهثين (الكاتب)

Twitter: @ketab_n

«أه، بونجور ماركوس، هل أنت بخير؟

– أجل بخير... وأنت؟

– لا بأس».

أجاب ماركوس وهو يتحاشى النظر في وجه المرأتين. وهذا ما أعطى انطباعاً غريباً جداً، كما لو كنا نتحدث مع شخص مستعجل جداً، انطباع غريب لأنه ببساطة لم يكن يبدو على ماركوس العجلة.

«هل أنت بخير؟ هل تؤلمك رقبتك؟

– لا... لا... أنا بخير... حسناً يجب أن أذهب».

غادر تاركاً وراءه المرأتين مذهولتين.

فكرت كلويه للحال: «إنه منزعج بشكل فظيع... حتماً لقد ناما معاً... لا أرى غير تفسيراً غير هذا.. لماذا إذن تجاهلها إن لم يكن الأمر كذلك؟» عندئذٍ، ابتسمت ابتسامة عريضة لناتالي: «هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟ هل ذهبت بالأمس مع ماركوس، إلى المسرح؟

– هذا ليس من شأنك.

– حسن جداً... هذا فقط لأني كنت أعتقد أننا نتشارك ببعض الأشياء، من ناحيتي، أنا أقول لك كل شيء.

– لكن بالنسبة لي، ليس لدي ما أقوله. حسناً، من الأفضل العودة إلى العمل».

كانت ناتالي فظّة. لم تكن قد استساغت الفخ الذي نصبته لها كلويه. بدا الحماس واضحاً في عينيها وهي تبحث عن القيل والقال. تمتمت كلويه منزعجة أنها تجهّز لاستراحة قصيرة لأجل عيد

Twitter: @ketab_n

ميلادها في الغد. قامت ناتالي بإشارة مبهمة كي تقول نعم بشكل غير واضح. لكنها لم تكن متأكدة على الإطلاق أنها سوف تحضر.

بعد ذلك، وهي في مكتبها، عادت لتفكر مرة أخرى بوقاحة كلويه. كانت ناتالي قد قضت عدة أشهر في إشاعات حول ماضيها. مراقبات سريّة لمعرفة كيف كانت تتحمّل الضربة، ماذا كانت تفعل، والطريقة التي كانت تُغرق بها نفسها في عملها. شعرت هذه المراقبة ثقيلة، بالرغم من كون دافعها المحبّة والرّأفة. في تلك الفترة، كانت ترغب في ألا ينظر إليها أحد، وعلى العكس، فمظاهر العطف الزائد كانت تصعّب عليها مهمّتها. كانت تحتفظ بذكرى مريرة لتلك الفترة حين كانت محط انتباه الآخرين. لهذا، فعندما عادت لتفكر بكلام كلويه، فهمت أنه يجب عليها التكتّم، وعدم إثارة قصّتها مع ماركوس أبداً. لكن هل كانت تلك حقاً قصّة؟ وفاة فرنسوا جعلتها تفقد كل نقاط ارتكازها، كان يستحوذ عليها الشعور أنها قد عادت مرة أخرى إلى سن المراهقة، وأن كل ما كانت تعرفه عن الحب قد دُمّر، وراح قلبها ينبض فوق الأنقاض. لم تكن تفهم موقف ماركوس ولا طريقته في تجنّب النظر إليها. كان هذا فعلاً مشهداً سينمائياً، أو ربما هو مجنون؟ إنه الجنونُ الجميل، هذا هو على الأرجح. لم تخطر على بالها فكرة: «أن تحب حقاً امرأة حدّ عدم الرغبة في رؤيتها». كلا، لم تكن تفكر بهذا. كانت غارقة بكل بساطة في الحيرة.

Twitter: @ketab_n

- 66 -

ثلاث شائعات تخصّ بيورن أندرسون، الممثل الذي أدى دور «تاتدزيو» في فيلم «***موت في فينيسيا***[34]» للمخرج «لوتشينو فيسكونتي».

– كان قد قتل ممثلاً مثلي الجنس في نيويوك.

**

– سيموت في تحطّم طائرة في المكسيك

**

– إنه يأكل فقط السلطة الخضراء

- 67 -

لم يكن ماركوس يشعر برغبة في العمل. بقي واقفاً أمام النافذة، يتأمل الفراغ. لم يزل الحنين يعتلج في داخله، وكي نكون أكثر

---

[34] فيلم ***موت في فينيسيا*** : للكاتب توماس مان. يرتكز النص على تحليل نفسي وفكري وفلسفي.

Twitter: @ketab_n

دقة: كان حنيناً مبهماً. مع ذلك فالأوهام التي يملكها ماضينا الكئيب تبقى محتفظة ببعض السحر. ففي هذه اللحظة، كانت تبدو له طفولته برغم فقرها الشديد، منبعاً للحياة. كان يسترجع بعض التفاصيل، فيراها مؤثرة بالرغم من أنها كانت دوماً مثيرة للشفقة. كان يبحث عن ملجأ آمن، عساه يسمح له بالاختباء من الحاضر. بالرغم من ذلك، ففي الأيام السابقة، كان قد توصّل إلى تحقيق نوع من الحلم الرومنطيقي بذهابه إلى المسرح مع امرأة جميلة. إذن، لماذا كان يشعر برغبة كبيرة بالعودة خطوة إلى الوراء؟ بالطبع، كان يجب رؤية هذا من منظور بسيط، بحيث يكون باستطاعتنا تعريفة بهذا الشكل: /الخوف من السعادة/. يقولون أننا نرى أجمل لحظات حياتنا تعبر أمامنا قبل أن نموت، يبدو من المعقول قدرتنا على رؤية خراب وإخفاق الماضي يعبر أمامنا في اللحظة التي نعيش فيها السعادة، بابتسامة تقريباً مقلقة. كانت ناتالي قد طلبت منه أن يأتي إلى مكتبها، وكان قد رفض:

– «أرغب في رؤيتك بشدة، قال لها، لكن ليكن ذلك من خلال الهاتف.

– تراني من خلال الهاتف؟ هل أنت واثق من أنك بخير.

– أنا بخير، شكراً. أطلب منك فقط أن لا تظهري في مجال رؤيتي فقط لبعض الوقت. هذا هو الشيء الوحيد الذي أطلبه منك».

كانت تشعر بالاستياء على نحو متزايد، ومع هذا أوصلها لأن تشعر بغرابة غاوية. كانت مساحة تساؤلاتها واسعة. تتساءل بينها وبين نفسها إن لم تكن تصرّفات ماركوس عبارة عن شكل من

Twitter: @ketab_n

أشكال الإستراتيجية، أم تراه شكلاً حديثاً من الظرافة في الحب؟ بالطبع كانت على خطأ، فقد كان ماركوس يعيش الحزن في أقصى درجاته.

في نهاية اليوم، قررت ألا تنصاع لتعليماته، ودخلت مكتبه. في الحال أشاح ماركوس بوجهه إلى الجهة الأخرى: وقال:

«هذا ليس بالأمر الحسن، زيادة على ذلك، لقد دخلت دون أن تطرقي الباب.

– لأني أريدك أن تنظر إلي.

– لا أريد.

– هل أنت على الدوام هكذا؟ بالتأكيد هذا ليس بسبب كأس النبيذ؟

– هذا صحيح بشكل ما.

– أنت تتقصّد فعل ذلك كي تثير فضولي أليس كذلك؟ أريد أن أقول لك أن هذا قد أعطى مفعوله.

– ناتالي، أقسم لكِ، أن ليس هناك سببٌ آخر غير الذي قلته لك بالأمس، أنا أحمي نفسي، هذا كل ما في الأمر. هذا ليس صعباً على الفهم.

– لكنك سوف تصاب بألم في رقبتك إن أنت استمريت على هذه الحال.

– أفضّل أن تتألم رقبتي على أن يتألم قلبي».

بقيت هذه الجملة الأخيرة معلّقة، كانت قد ترجمتها كأسلوب

Twitter: @ketab_n

تعبير، لا بل ككلمة مثل كوكوكور[35] عادت لتقول «ماذا لو كنت أرغب في رؤيتك؟ أو كنت أرغب في قضاء بعض الوقت بصحبتك؟ ماذا لو أني كنت أشعر بالراحة معك؟ ماذا أفعل؟

– ليس هذا ممكناً ولن يكون أبداً كذلك. من الأفضل أن تخرجي».

لم تكن ناتالي تعرف ماذا تفعل. هل كان يجب عليها أن تقبّله، أن تضربه، تنقله، تتجاهله، تذلّه، أو ترجوه؟ أخيراً أدارت بكرة الباب وخرجت.

- 68 -

في اليوم التالي، عند نهاية الدوام. كانت كلويه تحتفل بعيد ميلادها. لم تكن من النوع الذي يتحمّل فكرة أن يتجاهلها الناس أو ينسوها، مع أنه خلال بضعة سنين أخرى سيكون هذا وارداً بالتأكيد. كانت على استعداد لعمل أي شيء كي تبقى في دائرة الضوء، وكان بالإمكان الإعجاب بطاقتها، وطريقتها تلك التي تحول بها عالماً حزيناً بأكمله إلى شعلة متّقدة، تلك الطريقة لدفع الموظفين ليكونوا في حالة من الاسترخاء الزائف. وفعلاً، كان كل

---

[35] Cou qu'au Coeur: ضربة في القلب. تتابع حرف الكاف مع أحرف من العلّة مختلفة اللفظ.

Twitter: @ketab_n

موظفي القسم هنا تتوسّطهم كلويه، تشرب كأساً من الشمبانيا، بانتظار هداياها. كان هناك شيء ما مؤثّر وتقريباً ساحر في المبالغة في المظاهر المثيرة للسخرية لنرجسيتها.

لم تكن الحجرة واسعة. بذل ماركوس وناتالي جهدهما ليقفا بعيدين قدر الإمكان الواحد عن الآخر. كانت قد وافقت في النهاية على طلبه، محاولة قدر المستطاع عدم الظهور في مجال نظره. لم تكن كلويه مغفّلة وهي تتابع مناورتهما الصغيرة. فكرت: «لديهما طريقة لعدم الكلام لكنها تقول الكثير» يا للذهن الحاد.

لكن حسناً، سوف لن تهتم كثيراً بتلك القصة، فالأمر الأساسي بالنسبة لها كان نجاح حفلة عيد ميلادها. كان جميع الموظفين هنا، عائلة «بونواه»، و«بينيدكت» واقفين برخاوة يحملون كؤوساً بأيديهم، باللباس الرسمي، بتلك الهيئة المُسيطر عليها لدعوة ودّية. كان ماركوس يراقب الإثارة الصغيرة لكل واحدٍ منهم، وكان يجد ذلك أمراً مضحكاً. لكن بالنسبة إليه، كان الأمر الهزلي يكمن في أعماقه على هيئة إنسانية فهو الآخر يرغب في الاشتراك في هذا الحراك الجماعي. كان يشعر بضرورة القيام بالأمر بطريقة حسنة. في نهاية فترة ما بعد الظهر، كان قد طلب على الهاتف باقة من الورود البيضاء. باقة هائلة من الورد مُبالغ بها مقارنة بعلاقته مع كلويه. كما لو كانت نوعاً من حاجة يتمسّك فيها بالبياض، البياض اللامتناهي، الأبيض الذي يعوّض عن اللون الأحمر. في اللحظة التي وصلت فيها الشابة كي تُسلّم الأزهار إلى مكان الاستقبال، كان ماركوس ينزل الدرج، فظهرت فجأة صورة مذهلة: صورة ماركوس حاملاً تلك الباقة الهائلة في هذا البهو العملي الذي لا روح فيه.

Twitter: @ketab_n

بهذا الشكل، سار نحو كلويه، مسبوقاً بتلك الكتلة العظيمة والبيضاء. رأته يتقدّم نحوها فسألته:

«هذه لي أنا؟

– نعم، عيد ميلاد سعيد، كلويه».

شعرت بالإرباك، والتفتت لاشعورياً ناحية ناتالي. لم تكن كلويه تعرف ماذا ستقول لماركوس، كان هناك مربع أبيض بينهما: مربع أبيض على خلفية بيضاء[36]. كان الجميع ينظر إليهما. في النهاية، ما بدا على وجهيهما لم يكن إلا جزيئات هاربة من البياض. شعرت كلويه أن عليها قول شيء ما، لكن ما هو؟ أخيراً قالت: «هذا لا يجوز؟ إنه كثير جداً.

– نعم، بالتأكيد، لكن كان لدي رغبة كبيرة في البياض.

تقدّم زميل آخر من كلويه مع هديته. فاستغلّ ماركوس الفرصة كي يتراجع ويبتعد.

راقبت ناتالي المشهد عن بُعد. كانت ترغب في احترام قواعد ماركوس، لكن، وكونها قد شعرت بالضّيق العميق مما رأته، قررت أن تقترب لتتحدّث معه:

«لماذا قدّمت لها باقة كهذه؟

– لا أعرف.

– اسمع... بدأت أضيق ذرعاً بطبيعتك الانطوائية... أنت لا تريد أن تنظر إلي، ولا تريد أن تشرح لي.

---

[36] المربع الأبيض يوضع عادة على الأفلام التي تُعرض على التلفزيون للإشارة بأن الفلم للكبار فقط.

Twitter: @ketab_n

– أقسم لك أني لا أعرف، فأنا أول المنزعجين. أعرف تماماً أن هذا عمل غير متوازن، لكنه جاء هكذا. فعندما طلبت الأزهار في الهاتف تحدّثت عن باقة ضخمة من الورود البيضاء.

– أنت مغرم بها، أليس كذلك.

– هل تغارين أم ماذا؟

– أنا لا أغار، لكن بدأت أتساءل إن لم يكن تحت هيئتك البائسة القادمة من السويد، غاوٍ كبير.

– وأنت... خبيرة بالنفوس الذّكورية. هذا أكيد.

– هذا كله مثير للسخرية.

والأكثر إثارة للسخرية، هو أن لك عندي هدية أيضاً... لم أعطها لك».

التقت نظراتهما، وقال ماركوس: «كيف استطعت التفكير بأن بمقدوري عدم النظر إليك». ابتسم لها، وأجابت على ابتسامته بابتسامة. وهكذا عاد فالس الابتسامات من جديد. بدَوَا مرتبكين، مثل بعد اللحظات التي نأخذ فيها القرارات، نقول لأنفسنا أن كل شيء سيسير هكذا من الآن فصاعداً، وحركة حميمية واحدة في الشفاه تكون كافية كي نكسر ميثاق يقين يبدو كأنه أبدي. فإرادة ماركوس كلها كانت على وشك الانهيار أمام دليل واضح ألا وهو وجه ناتالي. وجه متعب، مشوش من عدم الاستيعاب، لكنه لم يزل هو نفسه، وجه ناتالي. غادرا الحفل خفية، وبصمت، ليجدا نفسيهما في مكتب ماركوس.

Twitter: @ketab_n

- 69 -

كانت المساحة في المكتب ضيقة، لكن كان الارتياح بينهما كافياً كي يملأ الغرفة. كانا سعيدين لوجودهما وحيدين. ينظر ماركوس إليها، وقد أربكه التردد الذي كان يقرأه في عينيها.

سألته: «إذن، أين هي هذه الهدية؟

– سأعطيها لك، لكن يجب أن تعديني ألا تفتحيها قبل أن تصلي إلى البيت.

– موافقة.

مدّ ماركوس نحوها برزمة صغيرة، فوضعتها ناتالي في محفظتها. وبقيا واقفين هكذا للحظة، /*لحظة لم تزل مستمرة حتى الوقت الحالي*/ لم يشعر ماركوس أنه مضطّر للكلام، أو أنه ملزم بملء الفراغ. كانا بكل بساطة مسترخيين، سعيدين بعودتهما. بعد فترة قالت ناتالي:

– ربما يجب علينا العودة، وإلا فالأمر سيبدو غريباً إن لم نعد.

– معك حق.

غادرا المكتب، وتقدما نحو الممر. عندما وصلا إلى مكان الاحتفال أصيبا بالدهشة: لم يكن هناك أحد، وكل شيء كان قد رُتّب وأعيد إلى مكانه. تساءلا: كم من الوقت إذاً قد مضى على بقائهما في المكتب؟

Twitter: @ketab_n

عندما وصلت ناتالي إلى بيتها، جلست على أريكتها، وفتحت الهدية، فوجدت علبة pez. لم تصدق عينيها، فهذا النوع من السكاكر لم يعد موجوداً في فرنسا. أثّرت بها هذه اللفتة في العمق. عادت فارتدت معطفها، وخرجت. أوقفت سيارة أجرة بإشارة من يدها (إشارة بدت لها فجأة بسيطة للغاية).

- 70 -

مقال في موسوعة ويكيبيديا تخص منتجات pez.

كلمة pez مشتقة من الكلمة الألمانية plefferminz

أي النعناع المنّكه، والذي اُعتبر أول رائحة تجارية. أصل pez من النمسا. وقد صُدّر إلى كل أنحاء العالم. وقد اعتبرت علبة pez (تلك الدمية الصغيرة التي تحوي السكاكر) كإحدى خصائص هذه العلامة التجارية، والتي أصبحت أشكالها المختلفة الكثيرة مطلباً من مطالب هواة جمع المجموعات.

- 71 -

عندما وصلت أمام الباب ترددت للحظات. كان الوقت متأخر

Twitter: @ketab_n

جداً. بيد أنها كانت قد وصلت حتى هنا، وكان من العبث العودة أدراجها.

رنّت الجرس أول مرة، ثم الثانية، دون أن تأخذ جواباً. راحت تطرق الباب. وخلال لحظات سمعت صوت أقدام:

من هناك؟ سأل صوت منزعج.

هذا أنا، أجابت.

فُتح الباب، وظهر أمام ناتالي منظر مشوش: كان شَعر والدها مشعثاً، وعيناه تائهتين. كان يبدو وكأن هذا الطارق قد جاء ليسرق منه شيئاً ما، في الواقع، ربما كان هذا صحيحاً، فقد جاء من سرق منه نومه.

لكن ماذا تفعلين هنا؟ هل هناك مشكلة؟

– كلا، أنا بخير، أردت فقط أن أراك.

– في مثل هذه الساعة؟

– نعم، فالأمر عاجل. قالت وهي تدخل منزل والديها.

– والدتك نائمة. أنت تعرفينها جيداً، فبإمكان العالم كله التوقف، فقط كي تتابع هي نومها.

– كنت أعرف أني سوف أوقظك أنت.

– هل تريدين أن تشربي شيئاً ما؟ قدح من الزهورات الساخن؟

وافقت ناتالي. واتجه والدها نحو المطبخ. كان هناك شيء من المرح في علاقتهما. ما إن تجاوز والدها المفاجأة، حتى استَّرد مظهره الهادئ، كما لو أنه قد عاد ليمسك بزمام الأمور مرة أخرى. مع ذلك، ففي تلك الساعة من الليل، كانت ناتالي تفكر في سرها أنه

Twitter: @ketab_n

قد شاخ. رأت هذا واضحاً من طريقة سيره وهو ينتعل خفيّه. قالت لنفسها:

إنه رجل متقدّم في السن وقد أُوقظ في منتصف الليل، ولابدّ له أن يأخذ وقتاً كي يضع خفيه ليذهب ويرى ما يجري. هذه الحيطة للقدمين بدت مؤثرة. ها هو يعود إلى الصالون: «إذن ما الذي يجري، ما هو الأمر الذي لا يمكنه الانتظار حتى الغد؟

– أردت أن أريك هذا».

عندها أخرجت علبة الـ Pez من جيبها، وللحال، كان لها التأثير ذاته على والدها، فقد أعاده هذا الشيء الصغير فوراً إلى الصيف نفسه، تحولت ابنته أمامه إلى الفتاة ذات الثماني سنوات. اقتربت ناتالي من والدها بلطف كي تضع رأسها على كتفيه، كان الـ Pez يحوي كل حنان الماضي، كل ما كان الزمن قد بدّده، ليس بشكل قاطع إنما بطريقة متناثرة. كان يوجد في الـ Pez زمن ما قبل المأساة، حين كانت الهشاشة تقتصر على سقطةٍ، أو على خدش. كان يوجد في الـ Pez صورة والدها، الرجل الذي كانت تحب وهي طفلة أن تركض لترتمي بين ذراعيه. وما إن تلتصق به حتى يكون بإمكانها أن تفكر بالمستقبل بأمان مطلق.

كان يحمل الـ Pez كل تفاصيل الحياة، كان شيئاً صغيراً ومثيراً للضحك، ومع ذلك فقد كان شديد التأثير. بدأت ناتالي تبكي، تبكي من كل قلبها أمام والدها دموع هذا الألم السجين داخلها. لم تكن تعلم لماذا، لكنها لم تكن في الماضي تترك نفسها أبداً على سجيتها أمامه، أتراها لأنها كانت وحيدته؟ أم لأنها كان يجب

Twitter: @ketab_n

عليها أن تلعب دور الفتى؟ ذاك الذي لا يبكي. لكنها الآن، كانت الفتاة الصغيرة، الطفلة التي فقدت زوجها. لهذا، وبعد كل هذا الوقت، وضمن هذا الجوّ الخفيف للـ Pez راحت تبكي بين ذراعي والدها، تاركة نفسها لتتحوّل على أمل السلوى.

- 72 -

في اليوم التالي، عندما وصلت إلى المكتب، كانت تشعر قليلاً بالإنهاك. فقد نامت أخيراً عند والديها. عند أولى تباشير الصباح، وقبل أن تستيقظ والدتها، خرجت لتعود إلى بيتها.

استرجعت ذكريات ليال لم تكن تنام فيها أثناء مرحلة الشباب، تلك الليالي التي كان بمقدورها أن تُقيم احتفالاً حتى بزوغ الفجر ثم تبدّل ثيابها وتذهب إلى العمل. كانت تشعر بتلك المفارقة في جسدها: سرعة الإرهاق. ذهبت لترى ماركوس، فاعترتها الدهشة عندما اكتشفت أنه لم يزل محتفظاً بهيئة الأمس ذاتها. نوع من القوة الهادئة لشخصية لم تتغيّر. هذه الفكرة طمأنتها، لا بل أراحتها أيضاً.

«كنت أريد أن أشكرك... على الهدية.

– العفو.

– هل أستطيع أن أقدّم لك كأساً هذا المساء؟».

Twitter: @ketab_n

هزّ ماركوس رأسه وهو يفكر: «أنا مغرم بها، وهي من يأخذ دوماً المبادرة للقاءاتنا»، فكّر بالأخصّ أنه يجب عليه ألا يخاف بعد الآن، وأنه كان سخيفاً بانسحابه بتلك الطريقة ليحمي نفسه. يجب علينا عدم الاقتصاد في ألم محتمل على الإطلاق. مرّة أخرى، كان يتابع تفكيره ويجيب نفسه، بينما كانت هي قد غادرت من بضع لحظات. كان يفكر أن هذا كله قد يقوده إلى الألم، وخيبة الأمل، والدرب المسدود المروّع الذي سوف يسلكه. بالرّغم من ذلك كانت لديه رغبة بالمضي قُدماً. كانت لديه رغبة بالذهاب نحو قدر مجهول. لا شيء بدا مأساوياً. كان يعلم تماماً أن هناك جسراً بين جزيرة الألم، وجزيرة النسيان، وتلك، التي تذهب إلى أبعد من ذلك، إلى جزيرة الأمل.

اقترحت عليه أن يلتقيا فوراً في المقهى فمن الأفضل بعد هروبهما بالأمس اعتماد جانب الحرص قليلاً، زيادة على ذلك فقد تذكّرت أيضاً أسئلة كلويه. وافق، ولو أنه في أعماقه، كان باستطاعته تنظيم مؤتمر صحفي يعلن فيه عن كل موعد من مواعيده مع ناتالي.

وصل هو أولاً، وقرر أن يجلس في مكان حسن للرؤية، مكان استراتيجي بحيث لا يمكن لأحد فيه أن يفوّت مشهد وصول المرأة الجميلة التي كان على موعد معها. كانت تلك حركة مهمة و يجب عدم اعتبارها بالتأكيد حركة مصطنعة، ولم يكن هذا ولا بأي حال من الأحوال شكلاً من أشكال المباهاة الذكورية. يجب أن نرى فيها شيئاً آخر أهم من ذلك بكثير: كان يوجد في ذاك الحدث الإنجاز الأول لقبول الذات.

Twitter: @ketab_n

للمرة الأولى منذ زمن، نسي أن يأخذ كتاباً معه وهو يغادر منزله في الصباح. كانت ناتالي قد قالت له أنها ستلحق به في أقصى سرعة ممكنة، لكن ليس من المستبعد أن يدوم الانتظار قليلاً. نهض ماركوس كي يأخذ مجلّة مجانية، وغرق في القراءة. شدّه في الحال خبر في الجريدة. وبينما هو مستغرق في قراءة المقال، ظهرت ناتالي:

– هل كل شيء على ما يرام ألا أشوش عليك؟

– كلا، بالطبع لا.

– يبدو عليك التركيز الشديد.

– نعم كنت أقرأ مقالاً... حول صفقة من جبنة الموزريلا. عندها، ضحكت ناتالي ضحكة من تلك الضحكات الكبيرة التي تخرج منّا عندما نكون متعبين، فلا يعود باستطاعتنا إيقافها. شعر ماركوس أن هذا الأمر مضحكٌ فعلاً، وراح بدوره يضحك، انتابتهما موجة من الضحك المجنون، فقد أجاب على سؤالها فوراً دون أن يفكر بالأمر، وها هي الآن تضحك دون توقف. بدا هذا منظراً غريباً بالنسبة لماركوس، كان كمن يقف أمام سمكة لها أرجل «بالنهاية لكل منّا استعاراته»، فمنذ سنين عديدة، وخلال مئات الاجتماعات، لم يكن قد رأى أمامه غير امرأة رزينة، ودودة. لكنها جدّية على الدوام. بالتأكيد، كان قد رآها تبتسم أحياناً، حتى أنه كان قد جعلها تضحك في إحدى المرات السابقة، لكن بهذا الشكل؟ فهذا لم يحدث أبداً. كانت هذه هي المرة الأولى التي تضحك فيها بهذه الشدّة. بالنسبة إليها بدا كل شيء واضحاً: شكّلت هذه اللحظة الإثبات الأكيد بالنسبة لديها على ما كانت أن تحب تعيشه مع ماركوس. رجل جالس في مقهى، يبتسم، يبتسم لك

Twitter: @ketab_n

ابتسامة كبيرة عندما تصل، ويعلن أمامك بجدّية أنه يقرأ مقالاً عن تجارة الموزاريلا.

- 73 -

مقال منشور في جريدة «ميترو» تحت عنوان اكتشاف عملية تهريب لجبن الموزاريلا.

تمّ الحجز على خمسة أشخاص، الأمس وما قبل الأمس، بسبب تهريب شحنة من جبن الموزاريلا من النوع الممتاز في منطقة «Bondoufle». بحسب المحقق، رئيس مفرزة الشرطة في Every المسؤول عن التحقيق، أنه كان هناك ما يقارب (60 إلى 70 بالة) أي ما يقارب الثلاثين طناً من الجبن المخزّن لمدة عامين، والذي أُعيد بيعه في المحافظة وصولاً إلى Villejuif. وعلى ما يبدو، ليست بشحنة ذات أهمية ما دامت الخسارة قد اقتُصرت على 280000 يورو. أُجري التحقيق إثر شكوى من شركة Stef، وهذا ما ساعد في اكتشاف شبكة متورط فيها صاحبا مطعم للبيتزا، حيث إحداها، تلك التي تقع في Palaiseau شكلّت مقراً للتوزيع. بقي أن نعرف من الذي يدير عملية التهريب هذه، وأين ذهب مردود الموزاريلا.

V.M

Twitter: @ketab_n

- 74 -

يترافق وجود الكحول أثناء القصص العاطفية بمناسبتين متعاكستين: عندما نتعرف على الآخر ويتوجب علينا أن نتحدث عن أنفسنا، وعندما لم نعد نملك شيئاً نقوله. هنا، في حالتهما، كانا في المرحلة الأولى، المرحلة التي لا نشعر فيها بمرور الوقت، المرحلة التي نعيد فيها ما جرى وحدث، وعلى الأخص مشهد القبلة. هذه القبلة، التي اعتقدت ناتالي أن الاندفاع الغريزي هو ما أملاها عليها. لكن، ربما الأمر ليس كذلك، وأن ليس هناك وجود في الواقع للمصادفة، وأن كل ما جرى لم يكن إلا الطريق اللاواعي للحدس والانطباع من أنها سوف تشعر بالراحة مع هذا الرجل. هذا ما جعلها تبدو سعيدة، ومن ثم رزينة، لتعود فتصبح سعيدة من جديد، رحلة دون توقف بين الحبور والحزن، إلى أن قادهما هذا السفر إلى خارج المقهى، إلى الطقس البارد. لم تكن ناتالي تشعر أنها بخير، فقد أُصيبت بالبرد من جراء خروجها بالأمس، والعودة ليلاً. إلى أين يتجهان الآن؟ كان يبدو هذا نوعاً من مسيرة طويلة، عندما لا نجرؤ بعد على الذهاب عند الآخر، ولا نرغب في الأخص أن نفترق، فنسمح لشعور التردد أن يطول ويؤبد، ويغدو أقوى في الليل.

سألها: «هل أستطيع تقبيلك؟

– لا أعرف...لدي بداية زكام.

Twitter: @ketab_n

– لا يهم. أنا على استعداد أن أمرض معك. هل باستطاعتي تقبيلك؟».

أحبت ناتالي بشدة طريقته في الاستئذان هذه، كان هذا نوعاً من الرقَّة، معه، كانت كل لحظة نوعاً من الخروج عن المألوف، كانت تستطيع بعد كل ما مرَّ وجرى معها، أن تتخيل أنها ستعيش مرة أخرى في الدهشة؟ كان لدى هذا الرجل، شيء ما فريد.

وافقت، بحركة من رأسها.

- 75 -

حوار من فيلم «الشهرة» للمثل وودي آلن والذي استقى منه ماركوس عبارته تلك.

ثورن: ألست خائفاً من العدوى؟ فلدي زكام.

كينيث براناغ: منك، أنا على استعداد حتى لالتقاط مرض عضال.

- 76 -

قد تكون الأمسيات رائعة، والليالي لا تنسى، ومع ذلك فهي تنجلي دوماً على صباح مثل كل الصباحات.

Twitter: @ketab_n

أخذت ناتالي المصعد كي تذهب إلى مكتبها، كانت تكره أن تلتقي بأحد ضمن هذا الحيِّز الضيق، وتضطر لتبادل الابتسام، وكلمات المجاملة، لهذا فقد كانت تتدبر أمرها بشكل يكون فيه الرّكب فارغاً. كانت تحب تلك اللحظات التي تصعد فيها نحو يومها في هذا القفص الذي يجعل منا كنمل في معرض. وهي تهم بالخروج من المصعد، التقت وجهاً لوجه معَ مديرها. لم يكن هذا مجرد تعبير: فقد اصطدما بالفعل.

ابتدرها قائلاً: «هذا غريب... كنت أقول لنفسي، في هذه اللحظة بالذات، أن لنا مدة لم نلتقِ فيها... وهوب... ها أنا أصطدم بك، لو كنت أعلم أني أملك هَذه القدرة، لطلبت أمنية أخرى.

– هذا مكر منك.

– لأكن أكثر جدية، لا بد أن أتحدث إليك، هل يمكنك أن تأتي إلى مكتبي الآن؟».

في الآونة الأخيرة، كانت ناتالي، قد نسيت تقريباً وجود شارل. كان أشبه برقم هاتف قديم، بعنصر لم يعد يتماشى مع الحداثة، كان كشيء هوائي، لهذا فقد وجدت الأمر غريباً أن تعود إلى مكتبه. منذ متى لم تذهب إلى هناك؟ لم تعد تذكر بالتحديد، فقد بدأ الماضي بالتشوه والذوبان في التردد، والاختفاء في غياهب النسيان، وكان هذا دليلاً على أن الحاضر يستأنف دوره. تركت الصباح يمضي، ومن ثم قررت.

Twitter: @ketab_n

- 77 -

بعض الأمثلة على أرقام هواتف من قرن مضى.

Odéon	32-40
Passy	22-12
Clichy	12-14

- 78 -

دخلت ناتالي مكتب شارل، ولاحظت أن مصاريع النوافذ كانت مفتوحة أقل من المعتاد، كان يبدو أن هناك محاولة ليغرق هذا الصباح في الظلام.

«بالفعل، لي زمن لم آتِ إلى هنا» قالت وهي تسير...

– زمن، نعم...

– لا بد وأنك قد قرأت فيه الكثير من كلمات قاموس اللاروس منذ...

– آه لا...لقد أقلعت عن هذه العادة. فقد سئمت من التعاريف،

Twitter: @ketab_n

في النهاية، هل تستطيعين أن تقولي ماذا نستفيد من معرفتنا لمعاني المفردات؟

– طلبت رؤيتي كي تسألني هذا السؤال؟

– لا...لا... بل لأن وقتنا يمر بلقاءات عابرة، وأردت ببساطة سؤالك عن أحوالك؟ وكيف تسير الأمور في هذه الأوقات...».

تلفظ هذه الكلمات الأخيرة بشبه تأتأة، فأمام هذه المرأة كان يبدو كقطار يخرج عن خط سيره. لم يكن يفهم لماذا تؤثر به كل هذا التأثير. هي جميلة بالطبع، ومن المؤكد أن لديها طريقة في الحضور كان تبدو له راقية، لكن مع ذلك، هل كان هذا كافياً؟ فهو رجل ذو سلطة، وأحياناً يكون لديه العديد من السكرتيرات الحمراوات اللواتي كن يوقفن عند مروره بالقرب منهن. كان يمكن أن يكون لديه العديد من النساء، كان بإمكانه أن يقضي وقته بين الساعة الخامسة والسابعة في فنادق الخمس نجوم. إذن، ما الأمر؟ ليس يوجد إلا تفسير واحد للأمر، فقد كان واقعاً تحت سطوة انطباعه الأول، لا يمكن للأمر إلا أن يكون كذلك. منذ اللحظة التي رأى فيها صورتها على أوراق سيرتها الذاتية، قال في نفسه: سوف يكون لي علاقة معها. حينها، ظهرت أمامه شابة، ومتزوجة، شاحبة ومترددة. بعد لحظات قليلة قدّم لها «الكريسبرول». أتراه وقع في هوى صورة فوتوغرافية؟ لم يكن هناك أصعب من العيش تحت السلطة الحسية لجمال متجمد. كان يتابع تأملها. لم تكن تريد الجلوس. كانت تسير، وهي تلمس المفروشات، وتبتسم دون

Twitter: @ketab_n

سبب. إنها تجسّد تام للأنوثة. أخيراً، دارت حول مكتبه، ووقفت وراءه.

– ماذا... ماذا تفعلين؟

– أنظر إلى رأسك؟

– لكن لماذا؟

– أنظر إلى ما وراء رأسك. لأني أشعر أن هناك فكرة ما تدور خلف رأسك.

لم يكن ينقص إلا هذا: أن يكون كلامها ساخراً. فقد شارل السيطرة تماماً وهو ضمن هذا المشهد. كانت خلفه، تتسلّى. لأول مرّة يبدو الماضي فعلاً ماضياً. كان قد حلّ هو في المرتبة الأولى آنذاك خلال الأيام السوداء العصيبة. كان يمضي ليالي طويلة في السهاد مفكراً وخائفاً من إمكانية انتحارها، وها هي هنا الآن، وراءه، بحيوية زائدة عن الحد.

«هيا، تعالي واجلسي، إذا سمحت. قال بهدوء.

– حسناً.

– تبدين سعيدة. وهذا ما يجعلك جميلة.

لم تجب ناتالي. كانت تتمنّى ألا يكون قد طلب منها المجيء كي يبوح لها مرّة أخرى بمشاعره. تابع كلامه قائلاً: «أليس لديك شيء تقولينه لي؟

– لا، أنت الذي أراد أن يراني.

– هل كل شيء يسير على ما يرام في مجموعتك؟

– نعم، أعتقد ذلك. في النهاية، أنت من يعرف ذلك أفضل

Twitter: @ketab_n

مني. فلديك الأرقام.

– ومع... ماركوس؟».

إذاً، هذه هي الفكرة التي تدور خلف رأسه. كان يريد التحدّث عن ماركوس. كيف لم تستطع التفكير بهذا الأمر مسبقاً؟

«قالوا لي أنكما غالباً ما تتناولان الغذاء معاً.

– من قال لك هذا؟

– الجميع هنا على علم بالأمر.

– وإن يكن؟ إنها حياتي الخاصة، ما الذي يخصّك في هذا الأمر؟».

توقفت ناتالي عن الكلام، وتغيرت تعابير وجهها. تأملت شارل، بائساً، متعلّقاً بشفتيها، يترقب شرحاً، يأمل أكثر ما يأمل أن يكون كل ذلك كذباً وتلفيقاً. بقيت لفترة تنظر إليه ولا تعرف ماذا ستعمل، أخيراً، قررت مغادرة المكتب، دون حتى أن تضيف كلمة، تاركة مديرها في عدم اليقين، ضمن إحباطٍ تام. لم تكن تتحمّل الثرثرة، ولا التحدّث من خلف الظهر، تكره طريقة الكلام تلك: أفكار تدور خلف الرأس، كلمات من وراء الظهر، وضربات من الخلف. كانت بالأخص جملة «الجميع يعلم بالأمر» هي التي استفزّتها. الآن، وبعد أن فكرت بتلك الكلمات، كان باستطاعتها أن تؤكد، أنها قد شعرت بالفعل بوجود شيء ما في عيون الآخرين. يكفي أن يكون أحدهم قد رآهما في المطعم، أو فقط وهما خارجان معاً، كي تمتلئ الشركة كلها باللغط. لماذا شعرت بالاستفزاز؟ لقد أجابت بجفاء أن هذا شأن من شؤونها الخاصّة. كان باستطاعتها أن تقول لشارل بكل بساطة: «نعم، هذا

Twitter: @ketab_n

الرجل يعجبني»، تقولها باقتناع، لكن لا، لم تكن ترغب بوضع النقاط على الحروف في هذا الموقف، ومن غير الوارد لأي شخص كان أن يدفعها كي تفعل ذلك. أثناء عودتها إلى مكتبها التقت ببعض الزملاء ولاحظت التغيير بوضوح، فنظرات الشفقة والعطف قد تركت نفسها تتآكل من قبل شيء آخر، لكن لم يكن بمقدورها بعد أن تتخيل ماذا يمكن أن يحصل.

- 78 -

فيلم كلود لولوش «رجل يعجبني تمثيل جان بول بولوندو وآني جيراردو[37]».
3 كانون الأول 1969

- 79 -

بقي شارل جامداً لوقت طويل بعد خروج ناتالي. كان يعلم تماماً أنه سوف لا يعرف كيف يدير هذا النقاش. كان أخرقَ وغير قادر

[37] بولوندو ـ جيراردو: ممثلان فرنسيان اشتهرا جداً في أواخر القرن الماضي.

Twitter: @ketab_n

على الأخصّ على أن يقول لها حقيقة ما كان يشعر به، كان يجب أن يقول لها: «نعم، هذا يخصّني، أنت لم ترغبي بالخروج معي، لأنه لم يكن لديك رغبة في أن تكوني مع رجل على الإطلاق. إذن نعم، لي الحق في معرفة ما تشعرين به، لي حق في معرفة ما الذي لا يعجبك بي، أنت تعلمين جيداً إلى أي درجة أنا أحببتك، وإلى أي درجة كان هذا صعباً عليّ، أنت تدينين لي بالشرح، هذا كل ما أطلبه منك». هذا على الأقل ما كان يرغب في قوله، لكن الأمر هو دوماً هكذا، نصل متأخرين دوماً خمس دقائق على مناقشاتنا الغرامية.

لم يعد باستطاعته العمل اليوم. بعد توضيح الموقف مع ناتالي في ذاك المساء الذي كان فيه الكثير من مباريات كرة القدم، والتي كانت نتيجتها كلها التعادل، هي التي أعطته مبرراً، لدرجة أن ذلك قد ولّد في حياته، نتيجة غرابة الآلية الحسية، نوعاً من التجديد مع زوجته. بقيا لأسابيع لم يتوقفا فيها عن المضاجعة وعن الالتقاء من خلال التواصل الجسدي. حتى كان بالإمكان اعتبارها فترة رائعة. أحياناً تكون مشاعر استعادة الحب تُضاهي ببساطة مشاعر العثور عليه. بعد ذلك، لم يلبث الاحتضار أن عاد ببطء إلى جسده، كضحكة ازدراء: كيف كان باستطاعتهما الاعتقاد أنهما متحابان من جديد؟ هذا لم يكن إلا نوعاً من العبور، من هلالين على شكل يأسٍ مقنّع إلى سهل بسيط بين جبلين مثيرين للشفقة.

كان يشعر أنه متعب ومنهك. فقد ضاق ذرعاً بالسويد والسويديين، بعاداتهم التي تثير التوتر بمحاولتهم دوماً البقاء

Twitter: @ketab_n

هادئين، وبعدم التحدث بصوت عالٍ في الهاتف على الإطلاق. هذه الطريقة في كونهم «زن»[38] وفي تزويد العاملين بوسائل كل هذا الاسترخاء، بدأت تثير أعصابه، كان ينقصه هستيرية سكان سواحل المتوسط، يحلم أحياناً أن يقوم بصفقات مع بائعي السجاد، في هذا السياق حدّد المعلومات التي تخصّ الحياة الخاصة لناتالي. مذ ذاك الوقت لم يتوقّف عن التفكير بماركوس. كيف تمكّن باسمٍ مغفّل كاسمه أن يفوز بقلب ناتالي؟ لم يكن يريد أن يصدّق ذلك، كان يملك الوعي الكافي ليعرف بأن قلبه عبارة عن سراب واحة، بمجرد الاقتراب منها، تختفي. لكن هنا بدا الأمر مختلفاً. فردّة فعلها المفرطة كانت تؤكد هذه الإشاعة، آه لا، هذا ليس ممكناً، لن يستطع احتمال هذا الأمر على الإطلاق «كيف فعل هذا؟» كان شارل لا يتوقّف عن ترديد تلك العبارة، لا بدّ وأن السويديين قد سحروها، أو شيئاً من هذا القبيل، خدّروها، نوّموها مغنطيسياً، جعلوها تشرب ذلك على جرعات، لا يمكن للأمر إلا أن يكون على هذا الشكل. لقد كانت تجده شديد الاختلاف. نعم، ربما كان هذا أكثر ما جرحه: فهي لم تعد أبداً ناتالي خاصّته. شيء ما كان قد تغيّر، نوع من التحوّل الحقيقي، لهذا، فإنه لم يجد إلا حلاً واحداً وهو استدعاء هذا الماركوس كي يرى ما بداخله، ليكتشف سرّه.

---

[38] زن: مذهب ديني من اليابان متعلق بالبوذية، يعتمد على الاسترخاء والتأمّل.

Twitter: @ketab_n

- 80 -

عدد اللغات، بما في ذلك السويدية، والتي يمكن للمرء فيها أن يقرأ رواية «*التحوّل*» للكاتب «ميشيل بوتور» الحاصل على جائزة رونودو عام 1957.

20 لغة

- 81 -

شبّ ماركوس على فكرة أنه لا يجب عليه أبداً أن يثير المشاكل، وأنه يجب عليه أن يبقى متحفظاً في أي مكان يمر فيه، وأن الحياة يجب أن تكون كالمعبر. لذلك عند سماع استدعائه من قبل المدير، أصيب بحالة من الذعر. كان باستطاعته أن يكون رجلاً، ويملك حس الدعابة والحس بالمسؤولية، كما كان بالإمكان الاعتماد عليه. لكن حين يصبح الأمر متعلقاً بالسّلطة، كان يجد نفسه كالطفل. راحت أسئلة كثيرة تلحّ عليه وتضايقه وهو في حالة من الغليان: «لماذا يريد رؤيتي؟ ماذا فعلت؟ هل فاوضت بشكل سيء الجزء الذي يخصّ التأمين في الملف 114؟ أتراني قد ذهبت

Twitter: @ketab_n

بشكل متزايد عند طبيب الأسنان مؤخراً؟» حاصره الشعور بالذنب من كل الجهات. ربما هنا يكمن الجانب الحقيقي لطبيعة شخصيته، الشعور السخيف الذي يلحّ عليه دوماً، بعقوبة قادمة.

طرق الباب على طريقته الخاصة، بإصبعين دوماً. طلب منه شارل الدخول: «صباح الخير، جئت لرؤيتكم... بما أن حضرتكم قد...

– لا وقت لدي الآن... لدي موعد.

– آه... هذا جيد.

– ...

– حسناً ، سأذهب إذن. سأعود مرة أخرى».

صرف شارل هذا الموظف لأنه لم يكن لديه الوقت لاستقباله، كان ينتظر ماركوس الشهير، دون أن يتخيل لحظة أنه كان أمامه. فهذا النذل كان يملك الجرأة لعدم إظهار نفسه عندما يُستدعى. أي نوع من المتمردين يمكن أن يكون؟ لن يمرّ الأمر هكذا، فمن يعتقد نفسه؟ اتصل شارل هاتفياً بسكرتيرته: «كنت قد طلبت من ذلك المدعو «ماركوس لانديل» أن يأتي، وحتى الآن لم يصل. هل بإمكانك معرفة ما يجري؟

– لكن حضرتك قد صرفته.

– كلا هو لم يحضر.

– بلى. فقد رأيته يخرج للتو من مكتبك».

اعترت شارل حالة من الغياب، كما لو أن ريحاً قد جاءت فجأة واخترقته، لا بد وأنها.ريح الشمال. كاد يغمى عليه. طلب من سكرتيرته أن تعاود استدعاءه. ما كاد ماركوس يجلس على كرسيه

Twitter: @ketab_n

حتى عاد لينهض من جديد. تساءل إن لم يكن مديره يريد السخرية منه. فكّر أنه ربما هو متوتر من العملاء السويديين، ويريد الانتقام من أحد المستخدمين من ذوي الأصول السويدية. لم يرغب ماركوس في أن يكون «يويو». إن استمرّ الأمر على هذا المنوال فسوف يطلب بالفعل التماساً من جان ـ بيير، النقابي في الطابق الثاني.

عاد فدخل ثانية إلى مكتب شارل، كان فم هذا الأخير ممتلئاً، يحاول تهدئة نفسه بأكل «الكريسبرول». غالباً ما يبحث المرء ليهدئ نفسه عن أشياء تزيد توتره. كان يرتجف ويتحرك دون توقف تاركاً فتاتاً من الكريسبرول يسقط من فمه. أصيب ماركوس بالدهشة. كيف بإمكان رجل مثله أن يدير المؤسسة؟ لكن من المؤكد أن دهشة شارل كانت هي الأكبر وهو يفكر كيف باستطاعة رجل كهذا أن يدير قلب ناتالي؟ ولد من دهشتيهما لحظات من الصمت، لم يكن بإمكان أحد منهما أن يتخيل ما الذي يمكن أن يحصل. لم يكن ماركوس على علم بالذي كان ينتظره، ولا شارل كان يعلم ماذا سيقول. كان قبل كل شيء مصدوماً وهو يردّد في نفسه: «لكن أيعقل هذا؟ إن شكله لمنفر... ليس له شكل... إنه رخو، هذا واضح وجلي أنه رخو.. آه لا... هذا غير معقول... ومن ثم، له هيئة من ينظر إلى الناس بشكل منحرف.. آه لا.. يا للهول! على الأخص ليست ناتالي... هذا الرجل... إنه لا شيء أبداً، لا، لا... آه إنه يسبب لي القرف... لا يمكن أن أجعله يتابع دورانه حولها... سوف أعيده إلى السويد... لا جدال في ذلك... نعم، هذا هو الأمر، نوع من الاستئصال البسيط.. سأبتره من الغد! «كان باستطاعة شارل أن يعيد ويسأل هكذا لمدة طويلة وهو في حالة من عدم القدرة

Twitter: @ketab_n

على الكلام، لكن حسناً ها هو قد أرسل في طلبه، يجب عليه إذاً أن يقول له شيئاً ما. وكي يكسب الوقت عرض عليه قائلاً: «هل تريد «كرسيبرول».

– كلا، أشكرك. لقد غادرت السويد كي أتوقّف عن أكل هذا النوع من الخبز الصغير... لهذا فأنا لا أريد العودة مجدداً لهذه العادة.

آه... آه... هذا مضحك جداً... آه... ها ها ها!».

غرق شارل في ضحك مجنون. هذا الأبله يملك خفّة دم. لكن أي نوع من البلهاء هو، إنه من أسوأ الأنواع: إنه من تلك الوجوه البائسة التي تفاجئنا بروح الدعابة، فعندما لا نكون بانتظار ذلك، فجأة، باف، تأتي مزحة ما... لا بد وأن يكون هذا هو سرّه، وقد كان شارل يشعر دوماً أن هنا تكمن نقطة ضعفه. فهو لم يعرف تماماً خلال حياته كلها كيف يجعل النساء يضحكن، حتى أنه تساءل أثناء تفكيره في حياته الشخصية، إن لم يكن موهوباً في جعل النساء كئيبات. فالحق يقال أن زوجته لورانس لم تكن قد ضحكت منذ عامين وثلاثة أشهر وسبع عشر يوماً. إنه يتذكّر تماماً هذا التاريخ لأنه سجّله في مفكرته، بنفس الطريقة التي نسجّل بها خسوف القمر: «اليوم، ضحكت زوجتي». يجب عليه الآن التوقف عن الاستطراد بهذه الأفكار والبدء في الحديث. ثم مم هو خائف؟ فهو المدير. وهو الذي كان يقرر رفع قيمة بطاقات المطعم[39]، وهذا ليس

[39] Ticket-Restaurant: عبارة عن شيك يعطى للموظفين لتناول وجباتهم في المطاعم دونما حاجة لدفع قيمة الفاتورة وذلك بحسب قيمة الشيك التي تحدد مسبقاً.

Twitter: @ketab_n

بالأمر الغير هام، يجب عليه حقاً أن يتمالك نفسه. لكن كيف يتحدّث مع هذا الرجل؟ كيف باستطاعته النظر مواجهة في وجهه؟ آه حقاً، مجرد فكرة أن بإمكان هذا الرجل لمس ناتالي، ووضع شفتيه على شفتيها كانت تثير فيه القرف. يا للتدنيس، يا للانتهاك! آه يا لناتالي. كان دوماً عاشقاً لناتالي، هذا واضح، فنحن لا نشفى أبداً من أهوائنا. كان يعتقد أن من السهل نسيانها، لكن لا، فشعوره الأولي كان في حالة من السبات داخله، وها هو يعود الآن ببعده الأكثر فجاجة.

وكحل أكثر جذرية من الاستئصال، وجد شارل حلاً آخر: النقل. فهو حتماً قد ارتكب خطأ مهنيا ما، كل الناس ترتكب أخطاء، هذا جيد، لكن هو لم يكن مثل كل الناس، وأكبر دليل على ذلك أنه كان يخرج مع ناتالي. ربما يكون من هؤلاء الموظفين المثاليين، من هؤلاء الذين يعملون ساعات إضافية وهم يبتسمون، من هؤلاء الذين لا يطالبون على الإطلاق بالعلاوات: إنه أحد أسوأ السيئين هذا العبقري الذي لم يكن حتى نقابياً.

«أردتم رؤيتي؟» قال ماركوس محاولاً بهذا قطع لحظات الصمت الطويلة التي كان يقضيها شارل في حبس أنفاسه من الدهشة.

– نعم... نعم... ها قد انتهيت من التفكير ببعض الأمور. وأنا معك الآن».

لم يكن من الطبيعي جعله ينتظر هكذا. أو بالأحرى لم لا؟... هو يستطيع فعل ذلك: سيتركه على هذه الحال اليوم بطوله، فقط كي يرى ردّة فعله، سوف لن يشكّل لديه هذا أي مشكلة، بما أنه قد

Twitter: @ketab_n

فكّر أن لا ضيق يوازي الضيق من بقاء المرء واقفاً أمام شخص لا يتحدّث إليه، ناهيك عن أن هذا الشخص مديره. لكن، لو كان هذا أي موظف غير ماركوس لأظهر بعض إشارات القلق، أو ربما لسالت منه بضع قطرات من العرق، لأكثر من الإيماءات، أو وضع رجلاً على رجل... لكن حسناً، هنا، لم تكن هذه هي الحالة على الإطلاق، كان ماركوس مكتفياً بالوقوف دون حراك منذ عشر دقائق أو ربما خمس عشر دقيقة. رواقيٌّ[40] تماماً. إنه من الأنواع غير المعروفة، ها هو الآن يفكر بهذا من جديد، لابد وأن هذا الرجل كان دون جدال ، مفعماً بقوّة عقلية خارقة.

في تلك الأثناء، كان ماركوس ببساطة واجماً، يعتريه شعور من الشك غير المريح على الإطلاق. لم يكن يفهم ما يجري، فخلال أعوام وأعوام لم يكن قد رأى فيها مديره، وها هو هذا الأخير يستدعيه كي يغلّفه بالصمت. كل واحد منهما كان يمثّل صورة عن القوّة أمام الآخر، دون أن يعلما بذلك. كان على شارل أن يتكلم أولاً، لكن دون فائدة، فكلماته كانت محبوسة، يتابع النظر إلى ماركوس مواجهة في عينيه، كالمنوّم مغنطيسياً، للوهلة الأولى فكر بالتخلّص منه، لكن بعد ذلك خطرت له فكرة أخرى توازي عدوانيته. من البديهي أن يولد لديه إغراء آخر، فبدل استبعاده، كان يجب عليه رؤيته كيف يتعامل مع الآخرين. أخيراً بدأ شارل الكلام قائلاً: «عفواً لأني جعلتك تنتظر، ذلك لأني فقط أحب أن

---

[40] رواقي: نسبة للفلسفة الرواقية التي تدعو لمحبة الحكمة ومزاولتها.

Twitter: @ketab_n

آخذ وقتي في التفكير بكلماتي قبل أن أوجّه الكلام لأحد، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بما سأقوله لك.

– ...

– لقد أحطّت علماً بإدارتك للملف 114. أنت تعلم جيداً أن لا شيء يخفى عليّ هنا، فأنا أعرف كل شاردة وواردة. ويجب عليّ القول أني سعيد جداً بعملك معنا، كما أني تحدّثت عنك مع السويديين وهم جد فخورين أن لديهم مواطناً فعّالاً مثلك.

– شكراً.

– أنا من يجب عليه أن يشكرك، يبدو وكأنك كالمحرك في هذه الشركة، وبشكل آخر، أحب أن أهنّئك بنفسي فأنا قد اكتشفت أني لا أقضي وقتاً كافياً مع العناصر الجيدين في الشركة، وسيكون من دواعي سروري التعرف بك. ربما باستطاعتنا تناول العشاء معاً هذا المساء، ها؟ ما رأيك ها؟ ها، سيكون هذا جيداً أليس كذلك؟

– أوه... موافق...

– آه هذا أفضل، يسرّني ذلك! ومن ثم هناك أشياء غير العمل في هذه الحياة، باستطاعتنا التحدّث بها، فأنا أرى أنه من المستحسن كسر الحواجز بين المدراء والموظفين.

– نعم كما تقول.

– حسنٌ، إلى المساء يا ماركوس! أتمنى لك قضاء يوم جيد، ويحيا العمل!».

خرج ماركوس من المكتب مشدوهاً أكثر من الشمس أثناء كسوفها.

Twitter: @ketab_n

- 82 -

عدد رزمات الكريسبرول المباعة في عام 2002:
22.5 مليون رزمة.

- 83 -

انتشرت الشائعة في المؤسسة كلها كالنار في الهشيم: ماركوس وناتالي على علاقة. كانت القصة الحقيقية هي أنهما لم يقبلا بعضهما البعض إلا ثلاث مرات، أما الخيالية، فهي أنها كانت حامل. نعم، فالناس كانت تضيف من عندها. وكي يكون باستطاعتنا تعريف حجم القيل والقال، يكفي أن نحسب إيراد جهاز تحضير القهوة، فاليوم، بدا وكأنه يوم تاريخي. كان الجميع يعرف ناتالي في المؤسسة، بينما ماركوس لم يكن معروفاً من قِبل الجميع، كان كنوع من الحلقة الخفية للسلسلة، الخيط الأبيض الأساسي لثوب ما، وبينما كان عائداً برشاقة إلى مكتبه، مذهولاً مما حدث معه، شعر بالعديد من النظرات تحطّ عليه. لم يكن يعرف لماذا، لهذا فقد مضى إلى الحمام كي يتحقّق من طيّات سترته،

Twitter: @ketab_n

خصلات شعره، المسافة الفاصلة بين أسنانه، لون شعره، لم يرَ أي شيء لافت للنظر، فكل شيء كان في مكانه الصحيح.

لم يتوقّف هذا الاهتمام عن الازدياد خلال اليوم كله. وجد العديد من الموظفين حججاً كي يأتوا لرؤيته. كانوا يطرحون عليه الأسئلة متعللين أنهم قد أخطؤوا الباب. ربما كان هذا نوعاً من ألاعيب المصادفة، يوماً من تلك الأيام الخاصة الغنية بالأحداث، دون أن نعرف تماماً السبب. إنه شيء ما، له علاقة بالقمر، هكذا كانت ستقول له عمّته في السويد، إحدى المنجّمات المشهورات في النرويج، وبسبب كل هذا الإزعاج، لم يجد فعلاً الوقت الكافي كي يعمل. والأنكى من هذا أنه لم يكن قد عمل أي شيء في اليوم الذي هنّأه فيه مديره على مجهوده في العمل، ربما شكّل هذا أيضاً سبباً لإعاقته، فليس من السّهل علينا أن نلقى تشجيعاً مفاجئاً عندما لا نكون في الصفوف الأولى، عندما لم يكن قد لاحظ أحد في أي وقت مضى ما قمنا به. ومن ثم كان هناك ناتالي، والتي كانت دائمة الحضور في تفكيره وعلى نحو متزايد، فقد منحه لقاؤهما الأخير دفقة كبيرة من الثقة،وبدأت الحياة تأخذ منحى غريباً، مبتعدة بلطف عن الخوف وعدم اليقين.

كانت ناتالي أيضاً قد شعرت بهذا الهرج والمرج من حولها. لم يكن هذا أكثر من شعور غامض حتى اللحظة التي حاولت فيها كلويه أن تواجهها، فتجرأت ودخلت مكتبها، وقالت: «هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟

– تفضلي

– يقول الجميع أن لك علاقة مع ماركوس. هل هذا صحيح؟

Twitter: @ketab_n

– لقد سبق وقلت لك أن هذا ليس من شأنك».

هذه المرة كانت ناتالي حقاً مغتاظة، بدا كل ما كانت تحبّه في تلك الفتاة وكأنه قد اختفى. لم تعد ترى فيها غير هاجس وضيع. كان موقف شارل قد صدمها بالفعل، وها هو الأمر يستمر الآن. ما بهم جميعاً مستثارون هكذا.

تابعت كلويه وهي تتلعثم قائلة: «هذا لمجرد أنني لا يمكن أن أتصوّر أمراً كهذا أبداً...

ثارت ناتالي:

– هذا يكفي. بإمكانك الخروج».

شعرت بشكل غريزي أنهم كلما انتقدوا ماركوس، كلما ازدادت قرباً منه، وهذا ما كان يزيد من توحّدهما في هذا العالم البعيد عن فهم الآخرين. عند خروجها من غرفة المكتب وصفت كلويه نفسها بالغباء. كانت ترغب بشدّة أن ترتبط بعلاقة خاصة مع ناتالي، لكن الآن، ها هي قد تصرّفت كالحمقاء. مع ذلك، وبالرغم من أنها قد صُدمت، فهي لها الحق في الشرح، أليس كذلك؟ ثم، لم تكن هذه هي المسألة فقط، بل كان هناك شيء ما غير ملائم في فكرة ارتباطهما. ليس هذا بسبب عدم حبّها لماركوس، ولا لأنها تجده منفراً، إنما فقط لأنها لم تكن تتخيّله قط مع امرأة كناتالي. كانت تعتبره دوماً كجسم طائر غير معروف في عالم الرجال، بينما كانت ناتالي تمثّل في نظرها دوماً صورة المرأة المثالية. لهذا، أزعجتها فكرة علاقتهما ودفعتها لردود أفعال غريزية. عرفت بالتأكيد أنها كانت فظّة، لكن عندما جاء الجميع يسألها: «إذن؟ إذن؟ هل لديك

Twitter: @ketab_n

أخبار؟» شعرت أن بإمكان وضعها الخاص عند ناتالي أن يكون ذا قيمة، وأن رفض ناتالي السابق أمامها لأي علاقة يمكن أن يسمح لها بالمزيد من التقارب.

- 84 -

الأعذار المستخدمة من قبل الموظفين للذهاب لرؤية ماركوس:

– أرغب كثيراً باصطحاب زوجتي لقضاء عطلة في السويد هذا الصيف. هل تستطيع إعطائي بعض النصائح؟

**

– أليس لديك ممحاة؟

**

– آه عفواً. لقد أخطأت في المكتب.

**

– أمازلت تعمل على الملف 114؟

**

Twitter: @ketab_n

– هل يعمل لديك خط الإنترنت؟

**

– بالرغم من كل ذلك فقصّة ابن بلدك تلك غريبة، ذاك الكاتب الذي مات قبل أن يكون لديه الوقت ليشاهد شهرة ثلاثيته[41].

- 85 -

عند منتصف النهار، أخذ ماركوس وناتالي استراحتهما، والتقيا على السطح. فقد غدا هذا المكان ملجأهما، كهفهما الخاص. منذ النظرة الأولى، فهما أن هناك شيئاً غير عادي يجري حولهما، وأن كليهما يرزح تحت وطأة فضول الآخرين. أخذا يضحكان من تلك البلاهة، واحتضن أحدهما الآخر، فقد كانت تلك أفضل طريقة في العالم لاستحضار الصمت: همست ناتالي أنها ترغب في رؤيته هذا المساء، وأنها كانت تتمنّى لو أن المساء هو هذه اللحظة. كان شيئاً رائعاً، شيئاً لطيفاً، طاغياً بشكل غير متوقع. شعر ماركوس بالضيق والحرج وهو يشرح لها أنه ليس حرّاً هذا المساء، وقد سبب له هذا

---

[41] ثلاثيته: إشارة إلى الكاتب السويدي ستينغ لارسون الذي كتب ثلاثيته «الألفية» وتوفي قبل أن يشهد شهرة كتاباته.

Twitter: @ketab_n

نوعاً من المعادلة المؤلمة: فهو كان قد بدأ يعتبر أن لا قيمة لأي لحظة يعيشها بعيداً عن ناتالي، ومع ذلك، فهو غير قادر بالمطلق على إلغاء موعده مع مديره. فوجئت ناتالي، ولم تتجرأ أن تسأل ما كانت قد توقّعته. إنما شعرت بالحيرة أكثر لوجودها فجأة في وضع حساس، وضع الانتظار، فشرح لها ماركوس أنه سوف يتناول العشاء مع شارل.

«هذا المساء؟ هل عرض عليك أن تتعشّى معه هذا المساء؟» لم تكن تدري في هذه اللحظة، هل يجب عليها أن تضحك أم تغضب. فليس من حق شارل أن يتعشّى مع أحد أفراد مجموعتها دون إخطارها بالأمر. فهمت للحال أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون له علاقة بالعمل. فماركوس حتى اللحظة، لم يكن بالفعل يبحث ليكشف الدافع المفاجئ لمديره. بالرغم من ذلك، فقد كان من الممكن تصديق لأمر كهذا: فهو أصلاً كان يعمل بنجاح في الملف 114.

«وهل قالَ لك لماذا يريد تناول العشاء معك؟

– امممممم... نعم... هو يريد تهنئتي...

– ألا يبدو لك الأمر غريباً؟ هل تتخيّله يتناول طعام العشاء مع أي موظف يرغب في تهنئته.

– أتدرين لقد وجدته شديد الغرابة، لدرجة بدا لي أن لا شيء مستغرباً منه.

– هذا صحيح. أنت محق في ذلك.

كانت ناتالي تحب طريقة ماركوس في معالجة الأمور. قد يبدو للوهلة الأولى كأنه سذاجة، لكنه لم يكن كذلك. كان كمن لديه عذوبة طفولية، قدرة على تقبّل المواقف، بما فيها المواقف الأكثر

Twitter: @ketab_n

غرابة. اقترب منها وقبّلها، كانت تلك قبلتهما الرابعة، القبلة الأكثر طبيعية. في بداية علاقة ما، يكون بإمكاننا تحليل معنى كل قبلة تقريباً، لكن مع مرور الوقت يتوقّف هذا تماماً في ذاكرة تتقدم ببطء نحو حيرة التكرار. قررت ناتالي ألا تقول شيئاً عن شارل، ودوافعه الغريبة. سوف يكتشف ماركوس بنفسه ما وراء هذا العشاء.

- 86 -

كان ماركوس قد عاد بسرعة إلى منزله كي يبدل ثيابه، فموعده مع المدير لم يكن قبل الساعة التاسعة مساءً. تردد، كما هي عادته، بين عدّة سترات. وقع اختياره أخيراً على البدلة الأكثر رسمية، والأكثر جدّية، هذا كي لا نقول الأكثر كآبة.

بدت هيئته كمتعهد دفن في إجازة. في اللحظة التي أخذ فيها قطار الضواحي، واجهته عقبة أخرى، فقد بدت الإثارة واضحة على وجوه الركاب، كانوا يفتقرون للمعلومات الصحيحة: هل هي نار الغرام، أم هي محاولة للانتحار؟ لم يكن بإمكان أحد أن يعرف تماماً. عمّ القلق قاطرة ماركوس، بينما هو كان يفكر بالأخصّ أنه سوف يجعل مديره ينتظره. وهذا ما حصل بالفعل. كان شارل جالساً منذ ما يقارب العشر دقائق يحتسي كأساً من النبيذ الأحمر، كان يشعر بالتوتر، بالتوتر الشديد، لأنه لم يسبق لأحد أن جعله ينتظر هكذا، كيف إذن بموظف كان لم يزل يجهل وجوده حتى

Twitter: @ketab_n

صباح هذا اليوم. مع ذلك، ووسط هذا الضيق، ولد شعور آخر، الشعور ذاته الذي كان قد شعر به هذا الصباح، وها هو يعود مرّة أخرى، وبشكل متزايد. كان نوعاً من الانجذاب الساحر. فماركوس كان باستطاعته فعلاً عمل كل شي، وإلا فمن لديه الجرأة على الوصول متأخراً في موعد كهذا؟ من كان لديه القدرة على تحدّي السلطة بهذا الشكل؟ ليس هناك ما يُقال. فهذا الرجل يستحقّ بحق ناتالي دون أي جدال. كان هذا أمراً لا يقبل الجدل، أمراً حسابياً، وكيميائياً.

أحيانا، حين نكون متأخرين، نقول لأنفسنا أن الركض لن يكون مجدياً، ونردّد لأنفسنا أن لا فرق هناك بين النصف ساعة أو النصف وخمس دقائق، وكلما تركنا القليل من الوقت لينتظر الآخر، كلما تحاشينا الوصول مبللين بالعرق.

هذا ما قرره ماركوس. فهو لم يرغب أن يبدو لاهثاً، ولا أحمر الوجه. كان يعلم تماماً أنه بمجرد أن يركض لمسافة قصيرة فسوف تبدو هيئته كالطفل الوليد. وهكذا، خرج من الميترو، مرعوباً من فكرة أنه قد يكون متأخراً بذاك القدر (ولم يكن بإمكانه الاعتذار بما أنه لم يكن يملك رقم جوال مديره) لم يكن أمامه إلا أن يسير فقط. بهذا الشكل وصل إلى العشاء بعد ساعة تقريباً عن الموعد، هادئاً، هادئاً جداً. أحدثت سترته السوداء التأثير نفسه للظهور الشبه احتفالي بالموت، كان أقرب إلى تلك الأفلام بالأسود والأبيض حيث يتجوّل فيها الأبطال تحت ظلال الضوء الخافت. كان شارل على وشك الانتهاء من شرب زجاجة كاملة من النبيذ وهو ينتظره، وهذا ما جعله يميل نحو الرومنسية. حتى أنه لم يصغِ لاعتذارات

Twitter: @ketab_n

ماركوس بشأن الميترو، فقد شكل له هذا الوصول نوعاً من النعمة المجسّدة والتي سوف تجعل هذه الأمسية تسبح تحت تأثير هذا التعبير الأولي.

- 87 -

فيلم[42]: ***الرجل الطويل الأشقر مع حذاء أسود واحد***

ما قاله برنارد بلييه Bernard Blier عن الممثل والمخرج بيير ريشارد:

«إنه قوي، قوي جداً».

- 88 -

أثناء العشاء، فوجئ ماركوس للغاية من تصرفات شارل. فقد كان هذا الأخير يتلعثم، يتأتئ، ويتحدّث كيفما اتفق. كان عاجزاً عن إتمام جملة، يطلق ضحكة مفاجئة، في الوقت الذي لم يحاول محدّثه فيه أن يكون مضحكاً أو هزلياً، بدا كمن لديه فارق زمني

---

[42] فيلم فرنسي عام 1972: Le grand blond avec une chaussure noire

Twitter: @ketab_n

مع اللحظة الحاضرة. تجرأ ماركوس بعد فترة وسأله:

«هل أنت بخير؟

– بخير؟ أنا؟ أنت تعرف منذ الأمس والأمر مستمر، بالأخص في هذه اللحظة».

عدم الترابط في هذه الجملة أكدت شكوك ماركوس. لم يفقد شارل عقله تماماً، فقد كان يشعر للحظات، وهو في ومضات نادرة من الوضوح أنه كان يخرج عن الموضوع. لكنه لم يكن يستطع السيطرة على نفسه، فقد كان ضحية دائرة صغيرة، فهذا السويدي الجالس أمامه قلب له نظام وأسلوب حياته. كان يقاوم كي يعود إلى الواقع. بالنسبة لماركوس، وبرغم حياته الماضية القليلة الإثارة، إلا أنه لم يكن بعيداً عن التفكير أن هذا العشاء كان الأكثر إثارة للقلق في حياته. مع ذلك لم يستطع كبح جماح نمو الرأفة في داخله، ومساعدة هذا الرجل الذي كان يسير على غير هدى:

«هل بإمكاني فعل شيء لأجلك؟

– بالتأكيد ماركوس.. سوف أفكر في هذا، هذا لطف منك. حقيقة أنت لطيف... هذا واضح.. من الطريقة التي تنظر بها إليّ... أنت لا تنتقدني... لقد فهمت كل شيء... الآن فهمت كل شيء.

– ماذا فهمت؟

– فهمت الأمر فيما يخص ناتالي. فكلما ازدادت معرفتي بك، كلما فهمت كل ما لم أكنه أنا نفسي».

وضع ماركوس كأسه من يده. كان قد بدأ يشك أن كل هذا له علاقة بناتالي، وعكس ما توقع، فقد كان إحساسه الأولي نوعاً من الشعور بالارتياح. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يحدّثه فيها أحدٌ

Twitter: @ketab_n

عنها. في تلك اللحظة بالذات، خرجت ناتالي من التهيؤات، ودخلت الجزء الحقيقي من حياته.

تابع شارل:

«أنا أعشقها. أنت تعلم ذلك جيداً».

– ما أعرف الآن بالأخص هو أنك قد أكثرت من الشراب.

– وماذا في ذلك؟ لن تغيّر ثمالتي في شيء. فصفاء ذهني حقيقي تماماً وهو إدراكي للشخص الذي لم أكنه أبداً. وأنا أنظر إليك، أدركت إلى أي درجة فشلت في حياتي... إلى أي درجة تابعت العيش في المظاهر، والتسويات الدائمة... قد يبدو لك هذا جنونياً، لكن سوف أقول لك ما لم اقله لإنسان من قبل: كنت أريد أن أصبح فناناً... نعم، أنا أعرف، أعرف أن النغمة هي ذاتها... إنما هذه هي الحقيقة، فعندما كنت صغيراً، كنت أعشق رسم زوارق صغيرة... كانت تلك سعادتي... لدي مجموعة كاملة من الزوارق الصغيرة المرسومة بشكل جندول.. قضيت ساعات وساعات في رسمها... كنت دقيقاً في رسم كل تفصيل... كم كنت أريد أن أصبح رسّاماً... أعيش حياتي في هذا النوع من الهيجان الهادئ... وعوضاً عن ذلك، فها أنا أحشو فمي بالكريسبرول طوال اليوم... والأيام تبدو طويلة بشكل يخيّل إليّ معها أنها لن تنتهي أبداً... وهي تتشابه كما الصينيين... وحياتي الجنسية... زوجتي... أقصد هذا الشيء... لست بالفعل راغباً بالتحدّث عنه.. لقد أدركت كل هذا الآن... رأيتك... فأدركت هذا كله...».

قطع شارل فجأة مونولوجه، كان ماركوس متضايقاً، فاستيعاب

Twitter: @ketab_n

أسرار شخص ما لا يعرفه، ليس بالأمر السهل على الإطلاق، فكيف إن كان هذا السرّ يخصّ رئيس عمله. لم ير أمامه غير الدعابة يستطيع بها تلطيف الأجواء، فقال:

«هل رأيت كل ذلك وأنت تنظر إليّ؟ هل هذا فعلاً نتيجة تأثيري عليك؟ في وقت قصير جداً...

– بل أكثر من ذلك، فأنت تملك حسّاً عالياً من الفكاهة. أنت عبقري، عن جد. لقد كان هناك ماركس، ثم أينشتاين، والآن توجد أنت».

لم يستطع ماركوس إيجاد مخرج سريع لهذا الموقف الزائد عن حدّه بشكل مفرط، ومن حسن الحظ ظهر النادل في تلك اللحظة:

«هل اخترتما؟

– نعم، سوف آخذ اللحم، قال شارل، النصف مطهو.

– وأنا أريد سمكاً.

– حسنٌ، أيها السادة. «قال النادل وهو يغادر.

بالكاد كان قد سار مسافة مترين حتى عاد شارل ليناديه:

«في الحقيقة، سوف آخذ كما السيد. أريد سمكاً أيضاً.

– حسنٌ، لقد سجّلت ذلك». قال النادل وهو يغادر من جديد.

بعد فترة صمت قصيرة، اعترف شارل قائلاً:

– لقد قررت أن أعمل تماماً مثلما تعمل أنت.

– تعمل كما أعمل أنا؟

– نعم، بشكل يشبه المينوتور قليلاً.

– أتعرف، لا يوجد شيء كثير لتفعله كي تصبح مثلي.

– لست موافقاً. مثلاً... سترتك؟ فأنا أعتقد أنه من المستحسن

Twitter: @ketab_n

أن أملك واحدة مثلها. يجب أن أرتدي كما ترتدي أنت، فلك أسلوب فريد. كل شيء عندك مدروس ومفكر فيه، واضح أنك لا تترك شيئاً للمصادفة، وهذا أمر تقدره النساء، ها، هذا يُقدّر، ها؟

– أوه، أكيد لا أعرف. باستطاعتي أن أعيرك إياها إن أردت.

– هذا هو الأمر! أنت تجسيد لكل الأشياء، أنت اللطف المجسّد، أنا قلت أني معجب بسترتك، وخلال ثانية، تضعها أنت تحت تصرّفي، هذا رائع، الآن انتبهت إلى أني لم أعِر سترتي لأحد بشكل كافٍ، فخلال حياتي كلها لم أكن إلا رجلاً أنانياً تجاه ستراته».

فهم ماركوس أن كل ما سوف يقوله سيؤخذ حتماً على أنه قول عبقري. كان الرجل ينظر الجالس أمامه ينظر إليه بشكل إعجاب نقي هذا كي لا نقول مبجّل.

وكي يتابع بحثه، سأل ماركوس:

«حدّثني أكثر عن نفسك.

– أصدقك القول، أنا في معظم الحالات لا أفكر من أكون.

– ها هي! هذه هي! مشكلتي، أني أفكر كثيراً. أسأل نفسي دوماً عما تراه يفكر بي الآخرون. يجب أن أكون أكثر رواقية»[43].

– لأجل أن تكون كذلك، يجب أن تكون قد وُلدت في السويد.

– آه، هذا ظريف للغاية! يجب أن تعلمني كيف باستطاعتي أن أتمتع بروح الدعابة هكذا. يا لمغزى هذا الجواب! هل أسكب لك؟

– لا، أعتقد أني قد شربت ما يكفي.

---

[43] الفكر الرواقي يرتكز على الهدوء ورباطة الجأش.

Twitter: @ketab_n

– يا لروعة هذا التحكّم بالذات! حسناً، هنا، سأقرر ألا أفعل مثلك، سأسمح لنفسي بقليل من الحيّز».

عندئذ، وصل النادل حاملاً السمكتين، وضعهما، وتمنى لهما شهية طيبة. شرعا في الأكل. فجأة، رفع شارل رأسه عن صحنه وقال:

«أنا بالفعل غبي. كل هذا مثير للضحك.

– ماذا؟

– أنا أكره السمك.

– آه...

– لا بل الأمر أسوأ من ذلك.

– آه حقاً؟

– نعم، فلدي حساسية من السمك.

– ...

– ها قد توضّح الأمر. لن يكون باستطاعتي على الإطلاق أن أكون مثلك. لن يكون باستطاعتي إطلاقاً أن أكون مع ناتالي. كل هذا بسبب السمك.

- 89 -

بعض التوضيحات التقنية المتعلقة بالحساسية من السمك

ليست الحساسية من السمك بالأمر النادر، فهي تأتي في المرتبة

Twitter: @ketab_n

الرابعة في بلدنا من حيث الأهمية. السؤال الذي يطرح نفسه عندما نقع ضحايا هذه الحساسية هو معرفة إن كنا نتحسس من نوع واحد من الأسماك أو من عدّة أنواع. عملياً، معظم المصابين بالحساسية لنوع واحد من الأسماك هم في العادة يتحسسون من الأنواع الأخرى، وهذا يفرض عمل فحص جلدي للبحث عن الحساسية التي تتقاطع مع بعضها، أو نقوم أحياناً بفحص للتحريض (مع العناصر المطروحة للمناقشة) في حال لم تكن الفحوصات الجلدية كافية. بإمكاننا التساؤل أيضاً إن كان هناك بعض أنواع من الأسماك تسبب حساسية أقل من غيرها. كي نصل إلى جواب عن هذه المشكلة، قارن فريق من الباحثين ردود الأفعال التي تتقاطع مع بعضها لتسعة أنواع من الأسماك: سمك المورة، السلمون، الميرلان، الإسقمري، التونة، الدنكة، اللوب[44]، الفليتان[45]، والبلي[46]، يبدو أن سمك التونة والإسقمري (هما الاثنان من فصيلة الإسقمريات) هما الأكثر احتمالاً، يأتي في المرتبة الثانية سمك الفليتان والبلي. وعكس ذلك، فإن الأنواع الأخرى تمتلك قابلية لردات أفعال خطرة، هذا يعني إن كان لديك حساسية من أحد تلك الأنواع، فسيكون لديك فرصة كبيرة لتصاب بالحساسية من الأنواع الأخرى.

---

[44] اللوب: نوع من الأسماك يعيش في البحر الأبيض المتوسط.

[45] فليتان: سمكة كبيرة الحجم مفلطحة تعيش في البحار الباردة لحمها أبيض طري.

[46] البلي: نوع من السمك المفلطح.

Twitter: @ketab_n

بعد هذا الكشف عن حساسية الأسماك غرق العشاء في الصمت. حاول ماركوس مرات عديدة استئناف الحوار، إنما دون جدوى. توقف شارل عن تناول الطعام، واكتفى بالشرب. بدت هيئتهما كزوجين عجوزين لم يعد بينهما ما يقال، يتركان نفسيهما ينجرفان إلى شكل من أشكال التأمّل الداخلي. مرّ الوقت بلطف (وفي بعض الأحيان تمرّ هكذا السنون أيضاً). عندما خرجا، وجد ماركوس نفسه مضطرّاً للعناية بمديره، فهو لن يستطيع القيادة بحالته تلك. أراد وضعه في تاكسي بأقصى ما يستطيع من سرعة. كان على عجل لينتهي من معاناة السهرة أخيراً. لكن ها هو نبأ سيء، فهواء المساء المنعش جعل شارل يستعيد قواه، وأبدى رغبته في الذهاب بنزهة:

«لا تتركني ماركوس. مازلت أريد التحدّث معك.

– لكنك بقيت جالساً مدة ساعة لم تقل فيها شيئاً، زيادة على أنك قد أكثرت من الشراب، ومن الأفضل أن تعود إلى المنزل.

– أوه، توقف قليلاً عن جدّيتك، ورزانتك! أنت تتعبني فعلاً! سوف نشرب كأساً أخيرة، هذا كل ما في الأمر. إنه أمر!».

لم يعد أمام ماركوس خيار آخر.

وجدا نفسيهما في مكان من تلك الأمكنة التي يتلامس فيها الناس بمناطق معينة بطريقة شهوانية. لم يكن والحق يُقال مكاناً مخصصاً للرقص، إنما شيء مشابه لذلك. جلسا فوق مقعد ضيّق زهري اللون، وطلبا فنجانين من الشاي الساخن. من ورائهما تصدّر نقش حجري يحمل شكلاً جسوراً، نوع من الطبيعة الميتة، لكنها كانت ميتة بالفعل. بدا شارل أكثر هدوءاً الآن، لكن نفسيته تابعت

Twitter: @ketab_n

انخفاضها التدريجي من جديد وقد ارتسم على وجهه نوع من التعب الهائل. عندما كان يفكر بالسنوات التي مرّت، كان يتذكّر عودة ناتالي للعمل بعد مأساتها. كان مسكوناً بصورة تلك المرأة المحطّمة. لماذا نهتمّ بهذا القدر بتفصيل صغير، بلفتة، بحركة، تجعل من هذه اللحظات الصغيرة جداً مركزاً لمصير بأكمله؟ كان وجه ناتالي يحجب في ذاكرته حياته المهنية والعائلية. كان باستطاعته تأليف كتاب كامل عن ركبتي ناتالي بينما هو عاجز عن تذكّر الأغنية المفضلة لدى ابنته. في ذاك الوقت، كان يجد لنتالي المسوغ لأفعالها، كان يتفهّم أنها لم تكن جاهزة بعد كي تعيش حياة أخرى. لكن في أعماقه، لم يكن يتوقف عن الأمل. اليوم، بدا كل شيء أمامه دون أهمية: كانت حياته مخيفة ويشعر بنفسه مضطهداً. وكان السويديون متوترين بسبب الأزمة المالية، وإيسلندا على شفير الإفلاس، وهذا ما أضعف الثقة لديه بشكل لا يستهان به. كان يشعر أيضاً بالكراهية المتزايدة نحو رؤسائه. فكما بقية المدراء، ربما كان سيعزل عند الأزمة الاجتماعية التالية. ومن ثم، كانت هناك زوجته التي لم تكن تفهمه. غالباً ما كانا يتحدّثان عن المال لدرجة يحدث له أحياناً أن يخلط بين حديثها وبين دائنيه. كان كل شيء يختلط في عالم دون نكهة لم تكن فيه الأنوثة نفسها إلا بقايا، حيث ما من أحد كان يأخذ الوقت الكافي ليقوم بضوضاء الكعب العالي. كان صمت كل يوم يعلن عن الصمت الأبدي. لهذا فقد تاهت خطواته لمجرد فكرة أن ناتالي غدت لرجل آخر.

صرّح بذلك بصراحة تامّة. فهم ماركوس أنه يجب عليه التحدّث عن ناتالي. مجرد ذكر اسم أنثى، ويغدو الليل دون نهاية.

Twitter: @ketab_n

لكن ماذا باستطاعته القول عنها؟ فهو بالكاد كان يعرفها. كان بإمكانه الاعتراف بكل بساطة: «أنت على خطأ.. لا يمكنك القول حقاً أننا على علاقة.. فالأمر لا يتعدى حتى الآن الأربع أو خمس قبلات... زيادة على أني لن أقص عليك غرابة كل ذلك..».

لكن لم يخرج أي صوت من فمه. كان لديه صعوبة في الحديث عنها وقد أدرك ذلك الآن. وضع مديره رأسه على كتفه ودفعه للبوح. عندئذٍ، حاول ماركوس جهده أن يقصّ بدوره جزءاً من حياته مع ناتالي ويقدم تفسيره لكل اللحظات الناتالية، ودون أن ينتبه للأمر، انهال عليه فجأة عدد كبير من الذكريات. عادت إليه لحظات سابقة من الزمن الهارب، قبل نزعَة القبلة بزمن طويل.

هناك اللقاء الأول معها، حين قام بمقابلته للتوظيف، وقد قال حينها في نفسه: «لن يكون باستطاعتي إطلاقاً العمل مع امرأة مثلها» لم يكن جيداً في المسابقة، لكن كان لدى ناتالي تعليمات بتوظيف أحد السويديين. كان ماركوس إذن هنا، في هذه المؤسسة، بسبب تلك المسألة للنسبة المحددة للعاملين. لم يكن على علم بذلك أبداً، بالنسبة إليه، لاحقه انطباعه الأولي عدّة أشهر. الآن يعاود التفكير بتلك الطريقة التي كانت لديها في وضع خصلات شعرها وراء أذنها، تلك الطريقة هي التي فتنته. أثناء اجتماعات فريق العمل، كان ينظر إليها على أمل أن تعاود القيام بتلك الحركة، لكن عبثاً، فقد كانت تلك منّة وحيدة. كان يفكر أيضاً في حركات أخرى مثل طريقة وضع ملفاتها على طرف الطاولة، والطريقة التي كانت تبلل شفتيها بسرعة قبل الشرب، والوقت الذي تأخذه كي تأخذ نفساً بين جملتين، والطريقة التي كانت تلفظ بها حرف S

Twitter: @ketab_n

أحياناً، بالأخص عند نهاية اليوم، وابتسامتها المجاملة، وتلك التي تقول فيها شكراً، وكعب حذائها الرفيع، آه نعم، كعبها العالي الرفيع الذي كان يُمجّد ربلة ساقيها، كان يشعر بالرهبة من موكيت المؤسسة، وقد تساءل في أحد الأيام عن ذاك الذي كان باستطاعته حقاً اختراع الموكيت؟ والمزيد من الأشياء والأشياء. نعم، كان يستعيد الآن كل شيء، وقد انتبه إلى أنه قد راكم في نفسه الكثير من الإعجاب بناتالي. كان كل يوم قربها غزواً هائلاً، لكنه مراوغ لإمبراطورية القلب الحقيقية.

كم من الوقت مرّ وهو يتحدث عنها؟ لم يعرف، عندما التفت نحو شارل وجده، ناعساً، كما الطفل الذي ينام وهو يصغي لحكاية. قام بتغطيته بسترته باهتمام رقيق كي لا يُصاب بالبرد. من خلال الصمت المستعاد تأمّل هذا الرجل الذي يتَوهم القوة. أدرك فجأة أنه لم يكن الأكثر تعاسة، هو الذي طالما شعر أن رئتيه داخل قمع، وغالباً ما فكر بحسد في حياة الآخرين، لا بل نمط حياته كان يعجبه. كان يأمل أن يكون مع ناتالي لكن، في حال لم يحدث ذلك فسوف لن ينهار. كان ماركوس عصبياً، وهشاً في بعض الأحيان، إلا أنه كان يملك بعض القوة، نوع من الاستقرار، من الهدوء. لديه شيء ما يسمح بعدم جعل أيامه عرضة للخطر. ما الفائدة من الانفعال عندما يكون كل شيء لامنطقياً؟ هذا ما كان يردّد لنفسه أحياناً، بالتأكيد هذا لأنه تغذّى من قراءة «سيوران»، قد تكون الحياة جميلة إن نحن عرفنا مساوئ كوننا ولدنا. رؤية شارل نائماً عزّز لديه هذا الشعور بالثقة، والذي سوف يكبر في داخله مصحوباً بالمزيد من القوة أيضاً.

Twitter: @ketab_n

تقدّمت منهما امرأتان في العقد الخامس، تحاولان المشاركة في الحديث، لكن ماركوس أشار إليهما بالتزام الصمت لأن هذا مكان مخصص للموسيقى. نهض شارل أخيراً مندهشاً لفتح عينيه في شرنقة وردية. رأى رأس ماركوس الذي قام بالسهر عليه، ولاحظ وجود السترة فوق كتفيه. ابتسم، وذكّره هذا الرسم البسيط على وجهه أن لديه صداعاً. حان الوقت للمغادرة. كان بالفعل قد حلّ الصباح، وها هما يصلان إلى المكتب معاً. عند خروجهما من المصعد، افترقا بعد أن تصافحا.

- 90 -

في وقت لاحق من صباح اليوم، توجّه ماركوس نحو آلة صنع القهوة. لاحظ على الفور أن الموظفين يبتعدون عن طريقه. بدا وكأنه موسى أمام البحر الأحمر. قد تبدو الاستعارة مبالغاً بها، لكن الأجدر بنا أن نفهم ما الذي كان يحدث. فماركوس موظف، وكما هو متكتّم هو ممل، ومما يقال عنه في كثير من الأحيان أنه شخص ما لا على التعيين وقد وجد نفسه في أقل من يوم، يخرج مع أجمل امرأة في الشركة، إن لم نقل أجملهن على الإطلاق (وكي لا يُفسد هذا الإنجاز، يجب التنويه أن هذه المرأة كانت تعتبر ميتة، بالنسبة للإغراء) ومن ثم للعشاء مع رئيسه. حتى أنهما قد شوهدا

Twitter: @ketab_n

يصلان معاً هذا الصباح. وكان هذا كافياً ضمنياً للقيل والقال بطريقة مغرضة، فهذا الأمر كثير بالنسبة لرجل واحد. كان الجميع يحيّيه ويسأله عن حاله في هذا اليوم، وعن الملف 114 إن كان يتقدّم فيه بشكل جيد؟ فجأة، أصبح الجميع مهتماً بهذا الملف السخيف، كما في إحصاء أدنى تحركاته بشكل لم يتجاوز اليوم منتصفه حتى كان ماركوس يشعر بالضيق، زد على كل ذلك ليلته البيضاء دون نوم، كان التحول عنيفاً جداً، كما لو أنه كان يستردّ فجأة، في بضع دقائق مكثّفة، سنوات وسنوات من عدم الشعبية. بالطبع، لا يمكن لكل هذا أن يكون طبيعياً، لابد أن يكون هناك سبب ما، شيء ما مريباً. كانوا يقولون أنه القمّة في خدماته للسويد، كما قيل أنه كان ابن أحد المستثمرين الكبار، وقيل أنه مريض بمرض عضال، وقيل أنه مشهور جداً في بلده الأم أكثر من ممثل سينمائي للأفلام الإباحية، قيل أنه كان قد اختير لتمثيل الإنسانية على سطح المريخ، كما قيل أيضاً أنه كان الصديق الحميم لناتالي بورمان.

- 91 -

تصريح للممثلة إيزابيل أدجاني.
في البث التلفزيوني «لبرونو مازور»
في 18 كانون الثاني 1987

Twitter: @ketab_n

«ما هو فظيع بالنسبة لي اليوم، هو وجوب المجيء إلى هنا لأقول: «أنا لست مريضة» كما لو أنني أقول «أنا لست قادرة على ارتكاب جريمة».

- 92 -

التقت ناتالي وماركوس عند الغذاء. كان متعباً، لكنه احتفظ بعينيه مفتوحتين على اتساعهما. استغربت عندما علمت أن العشاء استمرّ الليل بطوله. هل الأمور تجري معه دوماً هكذا؟ أم أنه لم يكن هناك ترتيب مسبق. كانت تريد أن تضحك، بيد أنها لم تحب كثيراً ما كانت تراه. شعرت بالتوتر والحرج من هذه الضجّة التي تحيط بها. جعلها هذا تتذكر تفاهة الناس بعد دفن فرانسوا وإرهاق التعبير عن التعاطف. ربما هي نزوة اعتباطية، لكنها كانت تراها كما بقايا آثار زمن التعاضد برصدها لردود أفعال معينة. قالت في نفسها: «إذا ما حدثت حرب جديدة، فسوف يكون كل شيء متماثلاً بالضبط». ربما كان شعورها مبالغاً فيه، لكن سرعة الإشاعة، مضافاً إليها بعض الضغينة، جعلها تشعر بقرف تردّد صداه من تلك الفترة المضطربة.

لم تكن تفهم لماذا كانت حكايتها مع ماركوس تثير الاهتمام بهذا الشكل. هل كان هذا بسببه؟ بسبب ما كان يصدر منه؟ أبهذا الشكل تخرب الارتباطات القليلة المنطق؟ لكن هذا أمر سخيف: هل

Twitter: @ketab_n

هناك منطقية أكثر من التوافق؟ مذ نقاشها الأخير مع كلويه، لم يهدأ غضب ناتالي. من يظنون أنفسهم؟ كانت تحول نظرة كل منهم الصغيرة نحوها إلى هجوم. قالت له:

«نحن بالكاد تبادلنا القبلات، ولدي انطباع أن الجميع يكرهني الآن».

– وأنا كل الناس تحبّني.

– هذا مكر هذا...

– يكفي السخرية منهم. هيا انظري إلى القائمة. هذا ما هو مهم، هل تريدين الهندباء مع الروكفور أم الحساء اليومي كمقبلات؟ صدقيني، لا شيء مهم الآن غير هذا».

كان لديه الحق بالتأكيد. مع ذلك، لم تستطع الاسترخاء. لم تكن تفهم لماذا كانوا يتصرّفون بهذه الطريقة العنيفة جداً. ربما كان يلزم لها بعض الوقت كي تدرك أن هذا كله مرتبط بولادة عاطفتها. كان هذا شعوراً مدوّخاً، حولته إلى عدوانية ضد كل شيء، وضد شارل قبل كل شيء:

«هل تعلم، كلما أفكر بالأمر، أقول في نفسي أن ردّة فعل شارل مثيرة للخجل.

– أعتقد أنه يحبك، هذا كل ما في الأمر.

– هذا ليس سبباً كي يتصرّف كالقره قوز معك.

– اهدئي، هذا ليس بالأمر المهم.

– لا أستطيع أن أهدأ، لا أستطيع...».

أعلنت ناتالي أنها سوف تذهب لرؤية شارل بعد الغذاء كي توقف عروضه السينمائية. فضّل ماركوس عدم التدخل في قرارها.

Twitter: @ketab_n

ترك بينهما فسحة من الصمت، قطعته بقولها:

«أعتذر منك، كنت غاضبة.

– هذا ليس بالأمر المهم. ثم أنت تعرفين، فالأخبار اليومية تتغير بسرعة... خلال يومين سوف لن يتحدّث عنا أحدٌ... وصلت سكرتيرة جديدة مؤخّراً، وأعتقد أنها ستنال إعجاب «بيرتييه»... إذن هل رأيتِ...

– لن يكون هذا سبقاً صحفياً. فبيرتييه يقفز فوق كل ما يتحرك.

– نعم، هذا صحيح، لكن هنا الوضع مختلف، أذكرك أنه كان على وشك أن يتزوج من المحاسبة... إذن نحن لسنا بعيدين عن حلقة من مسلسل صغير...

– أعتقد حقاً، أني تائهة».

كانت قد نطقت هذه الجملة بعنف. دون أي انتقال وبشكل غريزي. أخذ ماركوس كِسرة من الخبز وراح يفتتها في يده.

«ماذا تفعل؟» سألته ناتالي.

– أعمل كما في قصّة «*عقلة الإصبع*» إن أنت تُهت، فيجب أن تتركي وراءك أثناء سيرك فتاتاً من الخبز. هكذا، سيكون بإمكانك العثور على طريقك.

– الطريق الذي يقودني إلى هنا.. إليك، أعتقد؟

– نعم. إلا في حالة إن كنت جائعاً، وقررت أن آكل فتات الخبز وأنا أنتظرك».

Twitter: @ketab_n

- 93 -

اختيار ناتالي للمقبلات أثناء تناولها وجبة الغداء مع ماركوس كانت «طبق الحساء اليومي»

- 94 -

لم يعد شارل أبداً ذاك الرجل الذي كان قد أمضى الليل مع ماركوس.. عند منتصف النهار، عاد إليه وعيه، وندم على تصرّفاته. كان لم يزل يتساءل عن السبب الذي جعله يزل قدمه عند اكتشافه للرجل السويدي الآخر، ربما لم يكن منشرح الصدر، كان يعاني من أمور معلقة متعددة، لكن هذا ليس بسببٍ كافٍ ليجعله يتصرّف كما تصرّف، خاصة أمام شاهد. كان يشعر بالخجل. وهذا ما دفعه ليصبح عنيفاً. تماماً كالعاشق الذي يبدو عدوانياً بعد أداء جنسي مخزٍ. كان يشعر أن كل جزيئات العدوانية قد عادت لتعتلج في صدره. بدأ بالقيام ببعض حركات الفخفخة لكن، في تلك اللحظة بالذات دخلت ناتالي إلى مكتبه. فنهض على الفور:

Twitter: @ketab_n

«كان يجب عليكِ أن تطرقي الباب» قال بلهجة جافة.

تقدّمت نحوه بالطريقة ذاتها التي تقدّمت بها نحو ماركوس حين قبلّته، إنما كي تصفعه.

– ها قد تمّ الأمر.

– لكن هذا غير ممكن! باستطاعتي طردك من العمل لأجل هذا».

كان شارل يلمس وجهه وهو يردد تهديده مرتعشاً.

وأنا باستطاعتي إقامة دعوى عليك بسبب التحرش. هل تريد أن أظهر لك الرسائل الالكترونية التي أرسلتها إليّ؟

– لكن لم تتكلّمين معي بهذه الطريقة؟ فلطالما احترمت حياتك الخاصة.

– نعم، هذا هو الأمر. هيا العب أمامي بدورك. كنت تريد مشاركتي الفراش.

– بصراحة، أن لا أفهمك أبداً.

– وأنا الأخرى، لم أفهم ماذا ذهبت تفعل مع ماركوس؟

– لدي مع ذلك الحق بان أتناول الغذاء مع أحد الموظفين!

– بالتأكيد. هذا يكفي! هل هذا مفهوم؟ صرخت، وهذا ما جعلها تشعر بارتياح كبير. كانت قد رغبت في المتابعة أيضاً؟ كانت ردّة فعلها مفرطة، بدفاعها عن منطقها مع ماركوس، كانت تخون انفعالاتها، هذا الانفعال الذي كانت دوماً غير قادرة على تعريفه. ينتهي قاموس اللاروس حيث يبدأ القلب. وربما لهذا السبب كان شارل قد توقف منذ عودة ناتالي إلى الشركة عن قراءة التعاريف،

Twitter: @ketab_n

فلم يعد هناك ما يمكن أن يُقال، فقط مجرد السماح لردود أفعاله البدائية بالحديث.

في اللحظة التي كانت تهمّ بمغادرة المكتب أعلن شارل:

«تناولت معه العشاء لأني أردت أن أعرفه... أردت أن أعلم كيف يمكنك اختيار رجل بهذا القبح، وهذه التفاهة. أستطيع أن أفهم رفضك لي، لكن هذا، كما ترين، هذا مالا يمكنني فهمه أبداً.

– اسكت!

– وهل تعتقدين أني سوف أترك الأمر عند هذا الحد؟ لقد قابلت للتو المساهمين، وبين لحظة وأخرى سوف يحصل ماركوس خاصتك ذاك، على عرض مغرٍ جداً، عرض مهم بحيث يكون من الجنون رفضه. شيء واحد فقط لن يكون مناسباً، وهو أن الوظيفة سوف تكون في أستكهولم، لكن مع مبلغ التعويض الذي سيتقاضاه، أعتقد أن التردد سيكون مؤقتاً.

– أنت مثير للشفقة، خاصة أن لا شيء يمنعني من الاستقالة كي أتبعه.

– ليس باستطاعتك فعل ذلك! أنا أمنعك!

– أنا أرثي لحالك.....

– ثم لا يمكنك فعل شيء كهذا، لأجل فرانسوا أيضاً».

حدّقت ناتالي في وجهه. رغب عندئذٍ بالاعتذار، كان يعرف أنه قد بالغ كثيراً، لكنه كان قد أصبح عاجزاً عن الحراك، وهي كذلك. أصابتهما هذه الجملة الأخيرة بالشلل. أخيراً غادرت مكتبه على مهل دون أن تقول شيئاً. بقي وحيداً مع اليقين بأنه قد فقدها

Twitter: @ketab_n

بشكل نهائي. تقدّم نحو الواجهة الزجاجية، كي يتأمّل الفراغ أمامه بتوجسٍ شديد.

- 95 -

بعد أن جلست خلف مكتبها، اطلعت على جدول اعمالها. اتصلت بكلويه، طلبت منها أن تلغي لها كل مواعيدها.

«لكن هذا غير ممكن! يجب أن تديري اللجنة بعد ساعة.

نعم، أعرف ذلك. قاطعتها ناتالي قائلة. حسناً، سأتصل بك لاحقاً».

أغلقت السماعة دون أن تعرف ماذا يجب عليها أن تفعل. كان هذا اجتماعاً مهماً، وقد قضت وقتاً طويلاً في التحضير له. كان من الواضح أيضاً أنها لم تعد تستطيع العمل في هذه الشركة بعد كل الذي حصل وجرى. تذكرت المرة الأولى التي جاءت فيها إلى هذا المبنى. كانت لم تزل فتاة شابة. عادت لتتذكر في الفترة الأولى نصائح فرانسوا، ربما كان هذا هو الأمر الأقسى في ذلك الغياب المفاجئ والفوري لنقاشاتهما، موت تلك اللحظات التي نتحدث فيها عن حياة الآخر، أو نقيّمها. وجدت نفسها وحيدة على شفير الهاوية، وشعرت تماماً بالهشاشة تجتاحها، وأنها قد لعبت خلال السنوات الأخيرة الثلاثة الكوميديا الأكثر إثارة للشفقة، ففي أعماقها لم تكن

Twitter: @ketab_n

مقتنعة قط بالرغبة في الحياة. كانت تشعر أيضاً بالذنب. ذنب غامض وهي تعود للتفكير في يوم الأحد الذي مات فيه زوجها. كان يجب عليها أن تقف في طريقه، أن تمنعه من الذهاب إلى الجري، أليس هذا دوراً من أدوار الزوجة؟ أن تتصرّف بطريقة تجعل فيها الرجال يتوقفون عن إلى الجري؟ كان يجب عليها منعه، تقبيله، ممارسة الحب معه. كان يجب عليها أن تضع جانباً كتابها، تقطع قراءتها بدل أن تتركه يحطم لها حياتها.

انخفضت حدّة غضبها في الوقت الحالي. تأملت للحظات أخرى مكتبها، ومن ثم رمت ببعض الأشياء في حقيبة يدها، أطفأت حاسوبها، رتّبت أدراجها، وغادرت المكان. شعرت بالراحة كونها لم تلتق بأحد، كونها غير مضطرة أن تلفظ أية كلمة، يجب أن يكون هروباً صامتاً. أخذت تاكسي وطلبت منه الذهاب إلى محطة سان ـ لازار. اشترت بطاقة. وفي اللحظة التي بدأ فيها القطار يتحرّك، بدأت تبكي.

- 96 -

توقيت قطار باريس ـ ليزيو الذي أخذته ناتالي
المغادرة: الرابعة والنصف بعد الظهر من باريس سان لازار
الوصول: السادسة ودقيقتان إلى ليزيو

Twitter: @ketab_n

- 97 -

جمّد اختفاء ناتالي فوراً آلية عمل القسم كله. كان يجب عليها إدارة الاجتماع الفصلي الأكثر أهمية. كانت قد رحلت دون أن تترك خلفها أية تعليمات ودون أي سابق إنذار. دمدم البعض محتجّاً في الرواق، منتقداً افتقارها للاحتراف المهني. خلال بضع دقائق، سقطت كل اعتباراتها على نحو محزن: الجميع أصبح يعرف بعلاقتها مع ماركوس، لم يتوقفوا عن المجيء لرؤيته وسؤاله: «هل تعلم أين من الممكن أن تكون؟» كان يجب عليه الاعتراف أن لا. وهذا ما استدعاه ليعيد ويقول: «كلا، فليس لي أي علاقة خاصة معها. أنا لست مؤتمناً على أسرار ترحالها». كان من المؤلم اضطراره لتبرير مسلكه هكذا، ففي هذا التصور الجديد، سوف يفقد هيبته المتراكمة منذ يوم الأمس، كما لو أنهم يريدون لفت انتباهه فجأة أنه لم يكن بتلك الأهمية. لا بل راحوا يتساءلون كيف استطاعوا الاعتقاد ولو للحظات، أن بإمكانه أن يكون على علاقة وثيقة مع ناتالي بورتمان.

حاول عدة مرات الاتصال بها دون جدوى. فقد كان هاتفها مغلقاً. لم يستطع العمل. كان يدور في مكانه، حدث هذا بسرعة نظراً لضيق مكتبها. ما العمل الآن؟ انهارت أمامه فجأة كل ثقة

Twitter: @ketab_n

الأيام الماضية. كان يمر في ذهنه بعض المقتطفات من الغذاء «ما يهم هو معرفة أي نوع من المقبلات سوف نأخذ الآن». يذكر أنه تلفظ ببعض العبارات من هذا النوع. كيف استطاع التحدّث هكذا؟ لا يجب عدم التفكير في ذلك، إنه لم يكن على المستوى المطلوب. مع ذلك فقد سمعها جيداً تقول أنها تائهة، وهو، كان يطفو فوق السحاب، كان بإمكانه على الأقل التخفيف عنها ببعض العبارات. حدثها عن *عقلة الإصبع الصغير*! لكن في أي عالم يعيش؟ بالتأكيد ليس في عالم حيث النساء فيه تترك له عنوانها وراءها لحظة تهرب. كل هذا كان حتماً خطأه، إنه يجعل النساء تفرّ منه، وإن وُجدت فسوف تذهب ولابد كي تصبح راهبة، تأخذ القطارات أو الطائرات كي تهرب من الهواء الذي يتنفسه. كان يشعر بالألم. يشعر بالألم كونه قد أساء التصرف، فشعور العشق هو شعور قوي بالإحساس بالذنب. هنا، باستطاعتنا التفكير أن مصدر كل آلام الغير هو نحن. نستطيع أن نفكر، ودوماً بطريقة جنونية، بحركة خالقة للكون المادي تقريباً، أننا في داخل قلب الآخر، وأن الحياة تتلخّص بكل بساطة، في أنها داخل حوجلة من الصمامات الرئوية.عالم ماركوس هو عالم ناتالي، كان عالماً قائماً بذاته وشمولياً، كان في الوقت نفسه مسؤولاً عن كل شيء وأقل من لاشيء. عاد إليه العالم ببساطته، وتوصّل شيئاً فشيئاً إلى استعادة السيطرة على تفكيره، وأن يوازن بين الأبيض والأسود. فكر مرة أخرى بحنان في كلْ تلك اللحظات، بتلك الرّقة الحقيقية جداً

Twitter: @ketab_n

والتي من الصعب حذفها بهذه السهولة. كان الخوف من فقدان ناتالي قد شوّش تفكيره. كان ألمه نابعاً من هشاشته، تلك الهشاشة ذاتها التي بإمكانها أيضاً أن تشكل سحره. بربطنا لنقاط الضعف بتسلسل، ننطلق نحو القوة. لم يكن يعرف ماذا يفعل، لم يعد يرغب مطلقاً في العمل. لم يعد يفكر أبداً في يومه بشكل منطقي. كان يتمنى لو يصبح مجنوناً، لو يهرب هو الآخر، يأخذ تاكسي ويصعد في أول قطار قادم.

- 98 -

في هذا الوقت استدعاه مدير الموارد البشرية. بالطبع رغب الجميع في رؤيته. ذهب إليه دون أي شعور بالخشية. كان قد توقف عن الخوف من السلطة، لم يكن هذا إلا ترويضاً منذ عدة أيام. استقبله السيد بونييه بابتسامة عريضة. فكر ماركوس عندها: هذه الابتسامة هي جريمة، فالمهم بالنسبة لمدير الموارد البشرية هو امتلاكه لهيئة خاصة تُعنى بمسلك الموظف وكأنها حياته الشخصية. أيقن ماركوس أن بونييه جدير فعلاً بمهنته:

«سيد لونديل... أنا سعيد برؤيتك. أنا أتابعك منذ فترة، أنت تعرف..

– آه حقاً؟ أجابه و هو متأكد ـ بالمعنى الحرفي للكلمة ــ أن هذا

Twitter: @ketab_n

الرجل قد اكتشف وجوده للتو.

– بالطبع... فكل مسار يُحسب بالنسبة إليّ... لا بل يجب عليّ الاعتراف أني أكنّ لك إعجاباً حقيقياً، نظراً لطريقتك الواضحة التي لا تثير أي مشاكل، ولكونك لم تطلب مطلقاً أي شيء. هذا في غاية البساطة، لو لم أكن ذا ضمير حي، لكان باستطاعتي عدم ملاحظة وجودك وسط شركتنا هذه.

– آه...

– أنت الموظف الذي يتمناه أي رب أينما كان.

– هذا لطف منك. لكن هل تستطيع أن تقول لي لماذا تريد رؤيتي؟

– آه، أنت ببساطة تمثل كل شيء، هكذا! فعالية، وكفاءة! لا تضيّع وقتك هباء! لو بإمكان الجميع فقط أن يكونوا مثلك!

– إذن!

– حسناً... سوف أدخل مباشرة في الموضوع، الإدارة تعرض عليك منصب مدير لمجموعة، مع زيادة معتبرة في المعاش، وهذا يعود إليك. فأنت عنصر أساسي في الوضع الاستراتيجي لشركتنا، ومن المعتمد عليهم... ويجب عليّ الإقرار أني لست غير راضٍ عن هذه الترقية، لأن هناك ظروفاً يجب عليّ مسايرتها بجدّ.

– شكراً.. لا أدري بالفعل ما الذي يجب عليّ قوله.

– إذن، بالتأكيد، سوف نسهّل عليك كل مراحل خطواتك الإدارية لأجل الانتقال.

– الانتقال؟

– نعم، فهذا المنصب في استوكهولم. في بلدك!

Twitter: @ketab_n

– لكن من غير الممكن بالنسبة إليّ العودة إلى السويد. أفضل أن أكون في ANPE[47] على أن أكون في السويد.

– لكن...

– ليس هناك من لكن.

– بالطبع يوجد، اعتقد أن لا خيار أمامك».

لم يحر ماركوس جواباً، اكتفى بمغادرة المكتب دون أي كلمة.

- 99 -

حلقة التناقضات

وُجدت هذه الدائرة عام 2003 بهدف اكتشاف ANDRH[48] لخبراء الموارد البشرية غير الأعضاء، حلقة التناقضات تجمع مدراء الموارد البشرية مرة كل شهر في المقر المخصص للموارد البشرية للتداول في شأن المسائل التي تخص مدراء الموارد البشرية المعينين

---

[47] ANPE: مركز العمل. تابع لوزارة العمل و العلاقات الاجتماعية، وهو مفتوح أمام أي باحث للعمل. بغض النظر عن مستوى التعليم.

[48] ANDRH: الجمعية العامة لمدراء الموارد البشرية، الموضوع المطروح يوم الثلاثاء 13 كانون الأول 2009 «الاعتراف وقت الأزمة: هل تكون الولوية للفرد أم للمجموعة؟» الساعة السادسة والنصف وحتى الثامنة والنصف ليلاً. باريس.

Twitter: @ketab_n

وسط معارضة الشركة. هذه اللقاءات الشهرية هدفها تحطيم الأيقونات بذكاء. تُطرح مسألة حساسة للنقاش بلهجة معينة لكن مغايرة. يُرحب بالحديث بسخرية لكن ليس مرحباً باللغة الخشبية.

- 100 -

في العادة كان ماركوس يأخذ وقته في الممرات ويعتبر دوماً أن هذه التنقلات هي كالاستراحة الصغيرة. كان باستطاعته بكل بساطة أن ينهض ويقول: «سأذهب لأحرّك قدميّ قليلاً» مثلما كان الآخرون يذهبون لتدخين سيجارة. لكن في هذه اللحظة، انتهى نهائياً زمن اللامبالاة. كان يسرع، وكان مستغرباً رؤيته يتقدّم مسرعاً هكذا وكأنه مدفوع بنوبة غضب. كان كسيارة ديزل حين نقوم باستغلال محركها. أجل، هناك شيء ما قد استُغلّ فيه: لقد لامسوا خيوطه الحساسة، أعصابه التي تذهب مباشرة نحو قلبه.

دخل بغتة إلى مكتب مديره. حدّق شارل في موظفه، ووضع تلقائياً يده على خدّه. بقي ماركوس مزروعاً وسط الحجرة، محاولاً احتواء غضبه. تجرأ شارل و سأله:

«هل تعلم أين هي؟

– لا.. لا أعلم. توقفوا عن سؤالي جميعكم عن مكان ناتالي، أنا لا أعلم.

– كنت أتحدث مع الزبائن في الهاتف، وكانوا غاضبين جداً. لا

Twitter: @ketab_n

أصدق أنها تستطيع فعل شيء كهذا.

– أنا أفهمها جيداً.

– ماذا تريد مني؟

– أريد أن أقول لك أمرين.

– قل بسرعة. أنا مستعجل.

– الأمر الأول هو أني أرفض عرضك. وبئس الأمر منك. لا أعرف كيف سيكون باستطاعتك متابعة النظر في وجهك في المرآة.

– من قال لك إني أنظر لنفسي في المرآة؟

– حسناً، لا يهمني ما تفعله أو لا تفعله.

– والأمر الثاني؟

– أنا أستقيل».

بقي شارل مذهولاً لسرعة رد فعل هذا الرجل، فهو لم يتردد ولا للحظة. لقد رفض العرض، وسيغادر الشركة. كيف استطاع إدارة هذا الموقف بهذه الطريقة السيئة؟ ثم، لا، ربما كان هذا ما كان يريده بالفعل؟ يفرّان هما الاثنين بقصتهما الكئيبة. تابع شارل مراقبته لماركوس دون أن يستطيع قراءة أي تعبير على وجهه، لأن على وجهه ارتسم نوع من الغضب الذي يشل، الذي يحذف كل نوع مقروء من التعابير، وراح مع ذلك يسير باتجاهه، ببطء، وبخطوات مبالغ فيها، كما لو أنه كان محمولاً بقوة دفع غير مرئية، لدرجة لم يستطع شارل معها منع نفسه من الخوف، كان حقيقة خائفاً.

«والآن بما أنك لست ربّ عملي... أستطيع».

Twitter: @ketab_n

لم ينهِ ماركوس جملته بل حلّت قبضته محله. كانت هي تلك المرة الأولى التي يضرب فيها أحداً، وتحسّر كونه لم يفعل ذلك منذ زمن، كونه كان يبحث دوماً عن التعابير والكلمات كي يضبط مواقفه.

«هذا لا يجوز، أنت مجنون!» صرخ شارل

اقترب ماركوس منه، وقام بحركة كمن يريد صفعه من جديد، تراجع شارل مرعوباً. كان جالساً في زاوية مكتبه، وبقي للحظات طويلة خائر القوى في هذه الوضعية بعد خروج ماركوس.

- 101 -

29 آب 1960، من حياة محمد علي كلاي
فاز في لويسفل في مباراته المهنية الأولى، بالنقاط، ضد طوني هانساكر.

- 102 -

عند وصولها إلى محطة قطار ليزيو، استأجرت ناتالي سيارة،

Twitter: @ketab_n

كان قد مضى عليها مدة طويلة لم تقد فيها سيارة. خشيت ألا تستطيع استرجاع آلية القيادة ولم تكن تساعدها الأحوال الجوية، فقد بدأت تمطر. أحسّت بإنهاك قوي لدرجة أن لا شيء في هذه اللحظات كان بإمكانه إخافتها. راحت تزيد من سرعتها على الطرقات الصغيرة، قائلة *صباح الخير للحزن*[49]. كان المطر يعيق رؤيتها، ففي بعض اللحظات لم تكن تقشع شيئاً.

وكان أن حدث شيء ما، بريق خاطف لثانية، هكذا، خلال الرحلة. عادت لتعيش مشهد القبلة مع ماركوس. في اللحظة التي تراءت لها هذه الصورة، لم تكن تفكر به، كانت بعيدة عن ذلك، لكن فرضت الرؤيا نفسها عليها بوحشية، وراحت تستحضر اللحظات التي قضياها معاً وهي تتابع القيادة، وندمت كونها قد غادرت دون أن تقول له أي كلمة. لم تكن تعرف لمَ لم تفكر بهذا الأمر. لقد كان هروبها سريعاً جداً.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي تغادر فيها مكتبها بهذه الطريقة، وكانت تعلم تماماً أنها سوف لن تعود إليه أبداً، وأن جزءاً من حياتها قد توقف الآن، وحان الوقت كي تقود وتسير. مع ذلك قررت التوقف في محطة لتتزود بالوقود، خرجت من السيارة ونظرت حولها، لم تكن تستطيع التعرف على أي شيء. لابد وأنها قد أخطأت الطريق. كان الليل قد أرخى سدوله، وكان المكان مقفراً، وقد أنهى المطر هذه الثلاثية من الصور الكلاسيكية لليأس،

---

[49] عملاً بالرواية الشهيرة الأولى للكاتبة فرانسوا ساغان: ***صباح الخير أيها الحزن.***

Twitter: @ketab_n

أرسلت رسالة هاتفية لماركوس فقط كي تقول له أين هي. بعد دقيقتين استلمت الرد: «سآخذ أول قطار إلى ليزيو. إن كنت هناك، فذلك أفضل»، ثم تبعتها بعد لحظات رسالة أخرى: «بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا على القافية»[50].

- 103 -

مقتطفات من «*القبلة*» للكاتب جي دو مونباسان
هل تعلم من أين تأتي قوتنا الحقيقية؟ إنها تأتي من القبلة!
(....) القبلة ليست إلا المقدمة، مع ذلك.

- 104 -

نزل ماركوس من القطار. كان قد رحل هو الآخر دون أن يخبر أحداً، سوف يلتقيان كهاربين. وجدها واقفة دون حراك في الجهة المقابلة لردهة القطار. راح يسير باتجاهها كما يحدث في الأفلام. كان باستطاعتنا تخيل الموسيقى المصاحبة لهذه اللحظة، أو ربما

---

[50] Le train pour lisieux..... tout mieux: التعبير مقفّى في اللغة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

يكون الصمت. نعم، بالتأكيد سوف يكون الصمت الذي لن نسمع فيه غير أنفاسهما. باستطاعتنا حتى أن نتناسى كآبة الديكور. لم يكن بمقدور سيلفادور دالي على الإطلاق الاستلهام من محطة ليزيو ليرسم لوحة، فهي باردة وفارغة. استدل ماركوس على المحطة من إعلان يمثل المتحف المخصص «لتيريز ليزيو». وبينما هو يتقدم نحو ناتالي، فكر: «هذا غريب، كان باعتقادي دوماً أن اسم عائلتها هو ليزيو». نعم، كان يفكر حقاً بهذا، وناتالي كانت هنا، قريبة منه جداً، بشفتيها الجاهزتين للقبل، إنما كان وجهها متمنعاً، فقد كان صورة عن محطة ليزيو.

توجها نحو السيارة، جلست ناتالي خلف المقود، وأخذ ماركوس مكان الموت. انطلقت، وحتى اللحظة لم يكونا قد تكلما أي كلمة. كانا أشبه بهؤلاء المراهقين الذين لا يعرفون ما سوف يقولون في أول لقاء. لم يكن عند ماركوس أي فكرة عن المكان الذي هو فيه، ولا عن المكان الذي هما بصدد الذهاب إليه. كان يتبع ناتالي، وكان هذا كافياً بالنسبة إليه. بعد بضع لحظات، وكان قد ضاق ذرعاً بالصمت، قرر أن يدير المذياع الذي كان مبرمجاً على الأغاني العاطفية. صدحت عندها أغنية «*الحب الهارب*» لآلان شوسون:

«آه، هذا غير معقول» قالت ناتالي.

– ماذا؟

– لكن هذه الأغنية، هذا جنون، إنها أغنيتي، وهنا،.... في هذه اللحظة... هكذا».

Twitter: @ketab_n

راقب ماركوس المذياع بانتباه، فقد سمحت له هذه الآلة باستئناف الحديث مع ناتالي من جديد. كانت تتابع ترديدها أن هذا غريب وجنوني، وأن هذا يبدو كإشارة. لكن أي إشارة؟ هذا ما كان ماركوس عاجزاً عن معرفته. كان متفاجئاً أن هذا التأثير قد حدث برفقته، لكنه كان يعلم جيداً غرابة الحياة، المصادفات، والأقدار، وكلها شهود تجعلك تشك بالعقلانية. عند نهاية القطعة الموسيقية طلبت ناتالي من ماركوس إقفال المذياع. كانت ترغب أن تبقى معلّقة بهذا الجو الذي طالما أحبته، والذي كانت قد اكتشفته في الفيلم، في الشق الأخير لمغامرات أنطوان دوانيل. لقد ولدت في تلك الحقبة، وربما كان هذا شعوراً من الصعب تحديده: إنها تنحدر بالفعل من هذه الفترة مثل ثمار هذا اللحن. خاصيته الحلوة، وحزنه أحياناً، خفته، كان كل هذا تماماً كعام 1978. كانت تلك أغنيتها، كانت تمثل حياتها. ولم تكن قد عادت الآن بالمصادفة.

وقفت على حافة الطريق. منعت العتمة ماركوس من رؤية المكان الذي هما فيه، خرجا من السيارة، فلاحظ عندئذ حواجز كبيرة مشبّكة كتلك التي لمداخل المقابر، ولم يلبث أن اكتشف أنها ليست كبيرة بقدر ما هي ضخمة، تشبه تلك الحواجز التي بإمكاننا رؤيتها أمام سجن. بطبيعة الحال، محكوم على الأموات بالخلود، لكننا لا نستطيع تخيل أن بإمكانهم الفرار. عندها بدأت ناتالي في الكلام:

«دُفن فرانسوا هنا، أمضى طفولته في هذه المقاطعة.

..... –

Twitter: @ketab_n

– بالطبع هو لم يقل لي أين يريد أن يُدفن، فلم يكن يفكر أنه سوف يموت.... لكني كنت أعلم أنه كان يرغب أن يكون هنا بالقرب من المكان الذي ترعرع فيه.

– همس ماركوس: أفهم ذلك.

– هل تعلم، هذا غريب حقاً، فأنا الأخرى قضيت سنين طفولتي في هذا المكان. عندما التقيت مع فرانسوا وجدنا في الأمر مصادفة عجيبة. ربما نكون قد التقينا مرات عدة في فترة مراهقتنا، لكننا لم نر بعضنا مطلقاً، وكان أن وجدنا بعضنا في باريس، مثل ماذا؟....مثلما عندما يكون علينا الاجتماع بشخص ما...».

توقفت ناتالي عند هذه الجملة، لكن هذه الجملة تابعت مسارها في عقل ماركوس. عمن كانت تتحدث؟ عن فرانسوا، بالتاكيد، أو ربما عنه أيضاً؟ فالقراءة المزدوجة للحديث وضحّت رمز الموقف، كان هذا تكثيفاً قوياً ونادراً للعبارة. كانا هنا، هما الاثنين، جنباً إلى جنب، على بعد أمتار من ضريح فرانسوا، على بعد بضع أمتار من الماضي الذي لا يريد أن يكون نهاية المطاف. كان المطر ينهمر على وجه ناتالي بشكل لا يستطيع المرء فيه التمييز بين دموعها وحبات المطر، لكن ماركوس استطاع رؤيتها وتمييزها. كان يعرف كيف يقرأ الدموع، دموع ناتالي، اقترب منها، وضمها بين ذراعيه كما لو كان يريد أن يطوق العالم.

Twitter: @ketab_n

- 105 -

الجزء الثاني من أغنية الحب الهارب
غناء آلان شوسون، تلك التي سمعها ماركوس وناتالي في السيارة.

نحن، نحن لم نتحمل الضربة
بو، بو... انهمر الدمع على خديك
غادرنا ولم يكن هناك ما نقوله
هذا هو الحب على المدى
الحب هاربٌ
جاء طفل، كنت أنام، في الرباط
الرحيل، العودة، التحرك، هذه هي لعبة النوارس
بالكاد عشنا معاً، حتى غادرت غرفتي المطبخ
قد ندعى كوليت، انطوان أو سابين
حياتي كلها هي ركض من الأشياء الهاربة:
فتيات معطرات بباقات الدمع، والزهر
وضعت أمي أيضاً وراء أذنها
قطرة من شيء ما، له رائحة مماثلة.

Twitter: @ketab_n

- 106 -

عادا إلى الطريق. فوجئ ماركوس بوجود عدد كبير من المنعطفات، في السويد، الطرقات كلها مستقيمة وتقود إلى وجهات من الممكن رؤيتها. ترك نفسه يتأرجح من اللف والدوران دون أن يتجرأ على أن يسأل ناتالي إلى أين هما ذاهبان. لكن هل هذا يهم حقاً؟ كان من المألوف قول ذلك، بيد أنه كان على استعداد للحاق بناتالي حتى آخر العالم. لكن على الأقل، هل تعلم إلى أين هي ذاهبة؟ ربما أرادت الاندفاع فقط في عمق الليل، القيادة كمن يريد أن ينسى.

توقفت أخيراً، وهذه المرة أمام بوابة مشبكّة صغيرة. هل هذا هو موضوع تجوالهم؟ اختلاف في البوابات الشبكية؟ نزلت من السيارة كي تفتح البوابة، ومن ثم عادت إلى خلف المقود. بالنسبة لتفكير ماركوس، ظهرت كل حركة مهمة، تنفصل بطريقة آلية، بما أننا كنا نرى هنا تفاصيل ميثولوجيا شخصية. سارت السيارة عبر طريق طويل وضيق لتتوقف أخيراً أمام منزل.

«نحن عند جدتي مادلين إنها تعيش هنا وحدها منذ وفاة جدي».

– حسناً، يسرني التعرف إليها. قال ماركوس بتهذيب.

– طرقت ناتالي الباب مرة، ومرتين، ومن ثم راحت تطرق

Twitter: @ketab_n

بطريقة أقوى، لكن من دون أن تلقى جواباً.

– «سمعها ضعيف قليلاً، من الأفضل أن ندور حول المنزل، بالتأكيد هي في غرفة الجلوس، سوف ترانا من النافذة».

كان يجب عليهما السير، للاتفاف حول المنزل، في طريق أصبح موحلاً من المطر. تمسّك ماركوس بناتالي، لم يكن يرى بوضوح، أتراها قد أضاعت الجانب الصحيح؟ بين المنزل وأوراق الشجر المتلئة بالعليق لم يكن هناك عملياً أي مكان للمرور. انزلقت ناتالي مصطحبة معها ماركوس في سقوطها. ربما نكون قد شهدنا اكتشافات أكثر شهرة، لكن بالنسبة لهذه، فقد كان الاكتشاف الأكثر إثارة للضحك.

قالت ناتالي: الأفضل أن نسير على أربع.

– شيء ظريف أن ألحق بك. قال ماركوس

وصلا أخيراً إلى الطرف الآخر، ووجدا الجدة الصغيرة جالسة أمام نار المدفأة، لم تكن تفعل شيئاً. فاجأت هذه الصورة بالفعل ماركوس. طريقة وجودها هنا، في وضعية الانتظار، وتقريباً في حالة من نسيان الذات.

طرقت ناتالي على النافذة، وهذه المرة سمعت جدتها الصوت، أشرق وجهها وهرعت كي تفتح النافذة:

– أوه يا محبوبتي، ماذا تفعلين هنا؟ يا للمفاجأة الحلوة!

– كنت أريد رؤيتك، ولهذا توجب عليّ الدوران حول المنزل.

– نعم، أعرف، أنا آسفة، فلست الوحيدة التي قالت لي ذلك! هيا تعالي، سوف أفتح لك الباب.

– لا، سوف ندخل من النافذة. هذا أفضل».

Twitter: @ketab_n

قفزا من النافذة، وأصبحا أخيراً في أمان.

قدّمت ناتالي ماركوس لجدتها التي مررت يدها فوق وجهه، ومن ثم التفتت نحو حفيدتها لتقول: «يبدو لطيفاً»

عندها، ارتسمت على وجه ماركوس ابتسامة كبيرة، كما ليؤكد رأيها: نعم، هذا صحيح، أنا لطيف.

تابعت مادلين: «أعتقد أني أنا الأخرى قد عرفت شخصاً بهذا الاسم. كان ذلك منذ زمن طويل. أو ربما كان اسمه بولوس.. أو شاريوس... في النهاية... اسم ينتهي بحرف «وس» لكني لم أعد أتذكر بشكل جيد...».

حلّ صمت مربك، فماذا كانت تقصد بكلمة «عرفت»؟

ابتسمت ناتالي وضمت جدتها إليها والتصقت بها. عند رؤيتهما، كان باستطاعة ماركوس أن يتخيل ناتالي وهي طفلة صغيرة. كانت حقبة الثمانينيات ها هنا، موجودة معهم الآن.

بعد فترة سأل ماركوس: أين بإمكاني غسل يديّ؟

– آه، نعم، تعال معي».

أمسكت ناتالي بيده الملطخة بالطين، وقادته بخطوات سريعة نحو الحمام.

نعم، كان هذا، جانب الطفلة هو الذي كان يثير ماركوس. هذه الطريقة في الركض، في العيش في اللحظة القادمة قبل اللحظة الحاضرة. كان شيء ما لا يمكن كبح جماحه. ها هما الآن جنباً إلى جنب أمام مغسلتين، يبتسمان لبعضهما ببله وهما يغسلان أيديهما. كان هناك فقاعات، الكثير من الفقاعات، لكنها لم تكن فقاعات الحنين. فكر ماركوس أن هذا أجمل غسيل ليديه في حياته.

Twitter: @ketab_n

كان يجب عليهما تغيير ملابسهما، وكان هذا أمراً سهلاً بالنسبة لناتالي التي كانت تحتفظ ببعض الثياب عند جدتها. سألت مادلين ماركوس:

– هل لديك ملابس إضافية؟

– كلا، فنحن قد غادرنا هكذا.

– لمجرد نزوة؟

– نعم، لمجرد نزوة، هذا كل ما في الأمر.

انتبهت مادلين أنهما كانا سعيدين هما الاثنين من استخدام هذا التعبير «مجرد نزوة» بدا كلاهما متحمسين لفكرة وجود تصرف غير مهيأ له. اقترحت الجدة على ماركوس أن يذهب ويبحث في خزانة زوجها. قادته إلى آخر الرواق، وتركته وحيداً يختار ما يشاء. بعد بضع دقائق، ظهر مرتدياً بدلة نصفها بلون بيج، والنصف الآخر بلون غير معروف، كانت ياقة قميصه من الكبر بحيث بدا وكأن عنقه على وشك الغرق. لم يعق هذا اللباس الغريب الغير ملائم على الإطلاق حس الفكاهة لديه. بدا وكأنه مسرور لارتدائه بهذا الشكل، حتى أنه فكر: صحيح أني أغرق داخل هذه الثياب، لكني أشعر بالارتياح. بدأت ناتالي تضحك بشكل جنوني لدرجة دمعّت معها عيناها، وانسابت دموع الضحك على وجنتيها اللتين كانتا بالكاد قد جفّتا من دموع الألم. اقتربت مادلين منه، بيد أنها بدت وكأنها تتقدم نحو البدلة أكثر منها نحو الرجل، فخلف كل ثنية، كان تقبع ذكرى ما. بقيت للحظة أمام ضيفها مدهوشة دون حراك.

Twitter: @ketab_n

- 107 -

ربما الجدات ـ كونهن قد عاصرن زمن الحرب ـ لديهن دوماً ما يستطعن تحضيره للحفيدات اللواتي يهبطن عليهن فجأة في المساء مع شخص سويدي.

– أعتقد أنكما لم تأكلا بعد. لدي حساء.

– آه حقاً؟ ما هو؟ سأل ماركوس.

–إنه حساء يوم الجمعة. لا أستطيع أن أشرح لك، نحن في يوم الجمعة، إذاً هو حساء يوم الجمعة.

– إنه حساء من دون ربطة عنق. أكمل ماركوس الكلام.

اقتربت ناتالي من جدتها وقالت: تاتا، قد يصدف له أن يتفوه بأشياء غريبة. يجب عليك ألا تشعري بالقلق.

– أوه، أنا، أنت تعرفين، أنا لم أعد أشعر بالقلق منذ عام 1945 حسناً، هيا خذا أماكنكما».

كانت مادلين ممتلئة حيوية، كان هناك تحول حقيقي بين وضعية هذه المرأة التي كانت على وشك تجهيز وجبة عشاء، وبين تلك التي كانت جالسة بصمت أمام المدفأة. ولّدت لديها هذه الزيارة الشهية للحركة، فانهمكت في العمل في المطبخ، ولم ترغب أن يمد لها أحد يد المساعدة. شعرت ناتالي وماركوس بالتأثر من حماس

Twitter: @ketab_n

هذه المرأة الصغيرة. بدا كل شيء بعيداً الآن: باريس، المجتمع، الملفات، حتى الزمن هرب هو الآخر. لم تعد بداية عصر اليوم في المكتب غير ذكرى بالأسود والأبيض، وحده اسم الحساء «يوم الجمعة» سمح لهما في البقاء راسيين في واقع الأيام.

جرى العشاء ببساطة وصمت. فعند الأجداد لا تقترن السعادة بالضرورة عند رؤية الأحفاد بخطب رنانة. يكتفون بالسؤال عن الأحوال، وينعمون بسرعة بهذا الشعور الهانئ والبسيط كونهم معاً. بعد العشاء، ساعدت ناتالي جدتها في جلي الصحون. تساءلت في نفسها لماذا نسيت إلى أي درجة هو مريح وجودها هنا، كما لو أن كل أفراحها الأخيرة قد حكم عليها مباشرة بفقدان الذاكرة.عرفت الآن أنها تملك القوة للحفاظ على لحظات الفرح هذه.

في الصالون، كان ماركوس يدخن سيجاراً. هو الذي كان بالكاد يتحمل رائحة التدخين، أراد أن يفرح قليلاً مادلين: «هي تعشق الرجال الذين يدخنون السيجار بعد الطعام. لا تحاول أن تفهم السبب. أنت بذلك تسعدها، هذا كل ما في الأمر» كانت ناتالي قد همست ذلك في أذنه، في الوقت الذي كان على ماركوس أن يستجيب فيه للدعوة الملتوية.عندها أعلن عن رغبته الشديدة بتدخين سيجار، لاعباً بشكل سيء دور المنتشي، لكن مادلين لم تكن ترى في ذلك غير الحماس، وهكذا قام ماركوس بلعب دور سيد المنزل في بيت نورمانبدي. تفاجأ بشيء واحد وهو أنه لم يشعر بألم في رأسه، لا بل الأنكى من ذلك أنه بدأ يتلذذ بطعم السيجار.

Twitter: @ketab_n

كانت الذكورة كامنة في داخله، بالكاد متفاجئة كونها ها هنا. شعر بهذا الإحساس المتناقض بامتلاك الحياة بقوة من خلال السحب العابرة. بهذا السيجار، أصبح ماركوس العظيم.

كانت مادلين سعيدة لرؤية ابتسامة حفيدتها، فقد بكت كثيراً عند موت فرانسوا، ولا يمر يوم إلا وتفكر به. عرفت مادلين العديد من المآسي في حياتها، لكن تلك المأساة كانت الأعنف، كانت تعرف أنه يجب علينا المضي قدماً، وأن الحياة لا تستقيم إلا في الاستمرار بالعيش، لذلك، فهذه اللحظات جعلتها تشعر بارتياح كبير. وكي لا يُفسد أي شيء، شعرت بتعاطف حقيقي وخفي لهذا الرجل السويدي.

– لدى هذا الرجل خلفية نظيفة.

– آه صحيح، كيف عرفتِ؟

– أشعر به غريزياً. جوهره رائع.

قبلّت ناتالي جدتها مرة أخرى، وقد حان وقت النوم. أطفأ ماركوس سيجاره وهو يقول لمادلين: النوم هو الطريق الذي يقود نحو حساء الغد[51].

كانت مادلين تنام في الطابق الأرضي، فصعود السلم أصبح صعباً عليها. وكانت الغرف الأخرى موجودة في الطابق العلوي.

نظرت ناتالي إلى ماركوس وقالت: «هكذا لن يكون باستطاعتها إزعاجنا».

---

[51] تعبير مقفى في اللغة الفرنسية. Le chemin qui conduit à la soupe du demain

Twitter: @ketab_n

كان هذا التعبير يحتمل عدة تأويلات، كتلميحات جنسية، أو مجرد وجهة نظر عملية. لم يرغب ماركوس أن يفكر، بالطبع، كان يرغب فيها بشدة، لكنه فهم أن عليه صعود الدرجات دون أن يفكر بذلك. عندما وصلا الطابق العلوي ذُهل من جديد من الضيقة. فبعد الطريق الذي قطعته السيارة، والطريق الثاني للالتفاف حول المنزل، ها هي المرة الثالثة التي يشعر فيها بضيق المكان، كان هناك عدة أبواب في هذا الرواق الغريب، كما العديد من الغرف. مشت ناتالي جيئة وذهاباً دون أن تنطق بحرف. لم يكن هذا الطابق مضاءً بالكهرباء، أشعلا الشمعتين اللتين كانتا فوق الطاولة الصغيرة. كان وجهه برتقالياً، لكنه بالأحرى، بلون شروق الشمس، وليس غروبها. هي أيضاً كانت مترددة، مترددة بالفعل، كانت تعلم تماماً أن عليها هي أن تأخذ القرار. حدقّت مباشرة في الضوء، ومن ثم فتحت الباب.

- 108 -

عاد شارل ليغلق الباب، كان في حالة ثانية، وبإمكانه اختلاق حالة ثالثة، طالما أن جسده بعيد معه. كان وجهه يؤلمه من الضربات التي تلقاها صباحاً. كان يعرف تماماً أنه كان مثيراً للرثاء، وأنه كان يخاطر بشدة فيما لو علم رؤساؤه السويديون أنه

Twitter: @ketab_n

كان يريد نقل أحد الموظفين لأجل رغبة خاصة به لكن حسناً، كانت الفرصة ضئيلة ليُكتشف الأمر. كان مقتنعاً أنه لن يراهما من جديد، فقد أخذ هروبهما طابع الهروب النهائي. ربما ما جرحه أكثر من أي شيء آخر هو أنه لن يعود لرؤية ناتالي مرة أخرى. كان كل شيء من خطئه، تصرف بطريقة جنونية، وكان يرغب بها بشدة. كان يرغب لو يراها فقط مرة أخرى ليحاول جعلها تسامحه، ليحاول أن يثير في قلبها القليل من الشفقة. كان يريد أخيراً إيجاد الكلمات التي طالما فتش عنها، العيش في عالم يتركون له فيه الفرصة مرة أخرى ليكون محبوباً من ناتالي، عالم من فقدان الذاكرة العاطفية حيث يكون باستطاعته مقابلتها مرة أخرى للمرة الأولى.

كان يتقدم الآن في الصالون، وبرؤية غير منقولة، وجد نفسه أمام زوجته الجالسة على الكنبة. لوحة المساء هذه كانت عبارة عن متحف بلوحة واحدة. همس قائلاً:

«أنت بخير؟

– نعم أنا بخير، وأنت؟

– ألم تقلقي علي؟

– لماذا؟

– لكن، بسبب هذه الليلة...

– آه، لا، ماذا جرى هذه الليلة؟

لم تكن لورنس عملياً قد التفتت برأسها. كان شارل يتحدث إلى رقبة زوجته. فهم أنها لم تلحظ حتى غيابه في الليلة السابقة، وأن لا فرق بينه وبين الفراغ، كانت تلك هوة لا قعر لها. تمنى لو

Twitter: @ketab_n

بإمكانه أن يضربها، ربما يحقق بذلك بعض التوازن من هجمات اليوم، يعيد إليها على الأقل بعض الصفعات التي تلقاها، لكن ظلت يده للحظة مرفوعة مع وقف التنفيذ. راح يتأملها، كانت يده هنا في الهواء، وحيدة. أدرك فجأة أنه لم يعد بإمكانه ذلك لنفاد الحب، وأنه كان يختنق من العيش في عالم جاف. لم يأخذه أحد بين ذراعيه، لم يظهر أي شخص نحوه ولو قليلاً من العاطفة، لماذا كان ذلك؟ كان قد نسي وجود العذوبة، لقد تم استبعاده عن الرقة.

أنزل يده ببطء، ووضعها على شعر زوجته. شعر بالتأثر، تأثر حقيقي، دون أن يعرف تماماً من أين ظهرت تلك المشاعر. قال في نفسه أن لزوجته شعراً جميلاً. ربما يكون هذا هو السبب، أنزل يده كي يلامس رقبتها، كان يشعر فوق بعض أجزاء من جسدها ببقايا قبلاته الماضية، ذكرى حماسته. أراد جعل رقبة زوجته نقطة الانطلاق لاستعادة قلبه. دار حول الكنبة ليقف أمامها، ركع على ركبتيه، وحاول تقبيلها:

«ماذا تفعل؟ سألته بصوت ثقيل.

– أرغب بك.

– الآن؟

– نعم الآن.

– تأخذني على حين غرة.

– وماذا في ذلك؟ هل يجب تحديد موعد معك كي أقبلك؟

– لا... أنت غبي.

– أتعرفين ما الجيد أيضاً؟

– لا؟

Twitter: @ketab_n

الذهاب إلى فينيسيا، نعم، سوف أقوم بتجهيز الأمر... سنذهب في عطلة الأسبوع... نحن الاثنين... سيكون هذا مفيداً لنا....

– ..... أنت تعرف أني أصاب بدوار البحر.

– إذن....؟ هذا ليس مهماً، سنذهب إلى فينيسيا بالطائرة.

– أقول دوار البحر بالنسبة للجندول. مؤسف الذهاب إلى فينيسيا وعدم استطاعة ركوب الجندول، ألست معي في ذلك؟

- 109 -

رأي لفيلسوف بولوني آخر
«وحدها الشموع تعرف سر الاحتضار»

- 110 -

دخلت ناتالي الغرفة التي اعتادت أن تنام فيها، كانت تسير على ضوء الشمعة، بيد أنها كانت تستطيع التقدم طالما أنها تعرف تماماً كل زاوية من زوايا الغرفة. كانت تقود ماركوس، الذي كان يتبعها ممسكاً بوركيها، كانت تلك هي الظلمة الأكثر إضاءة في حياته كلها. كان يخشى من سعادته أن تصبح أكثر حيوية،

Twitter: @ketab_n

فتحرمه من أي قدرة. لم يكن من النادر أن يشله فرط الإثارة. ينبغي ألا يفكر بالأمر، بل ليترك نفسه تنقاد كل لحظة بلحظتها. كل نفَس كان عالماً قائماً بذاته. وضعت ناتالي الشمعتين على طاولة صغيرة قرب السرير، وجدا أنفسهما وجهاً لوجه، في حركة الظلال المثيرة للمشاعر.

وضعت رأسها فوق كتفه، مسّد شعرها. كانا يعيشان حكاية لا تُصدق. لكن البرد كان قارساً. كان أيضاً صقيع الغياب: لا أحد كان يأتي إلى هنا. كان هذا أشبه بمكان يجب عليهما استعادة اكتشافه بشكل يضيفان ذكريات أخرى على ذكرياته السابقة. استلقيا تحت الغطاء، وقد كان ماركوس يتابع التمسيد على شعر ناتالي فقد كان معجباً جداً به، كان يريد أن يكتشفه شعرة شعرة، وكانت ناتالي بدورها، تشعر بالسكينة والارتياح وهي بالقرب من رقّة هذا الرجل الذي كان يحرص على عدم استعجال الموقف. مع ذلك، فقد كان جريئاً. ها هو يجردها من ثيابها الآن، وقلبه يطرق بقوة غامضة.

إنها عارية الآن، تلتصق به. كانت عاطفته من القوة بحيث أخذت حركاته في التباطؤ، بطئاً يأخذ تقريباً شكل التراجع. اجتاحه شعور بالرهبة، فغدا مرتبكاً. أحبت تلك اللحظات التي كان فيها أخرق، ومتردداً. فهمت أنها كانت ترغب في ذلك أكثر من أي شيء آخر، التعرف على الرجال من قبل رجل لم يكن بالضرورة معتاداً على النساء، ويكتشفا معاً طرق الودّ والحنان والرقة. كان هناك شيء ما مريح جداً لمجرد فكرة التواجد معه، قد يكون هذا غطرسة أو سطحية، إنما بدا لها أن هذا الرجل سيكون

Twitter: @ketab_n

سعيداً معها على الدوام، يحدوها الأمل أن ارتباطهما سيشكل نوعاً من الاستقرار التام، وأن لا شيء يمكن أن يحدث، وأن معادلتهما الفيزيائية ستشكل ترياقاً ضد الموت. كانت تفكر بكل هذا على شكل مقتطفات، دون أن تكون متأكدة تماماً. كانت تعلم حق العلم أن هذه هي اللحظة، وأن في هذه المواقف، الجسد هو دوماً من يقرر.كان فوقها الآن وهي تمسك به بإحكام. سالت الدموع على وجهها، فقبّل دموعها.

ومن هذه الدموع، انسابت دموع أخرى أيضاً، دموعه هو هذه المرّة.

- 111 -

بداية الفصل السابع من رواية «*المربعات*» لخوليو كورتاثار

الكتاب الذي كانت ناتالي تقرأه عند بداية هذه الرواية

«ألمس فمك بأصبع واحدة، ألمس حافة شفتيك، أرسم فمك كما لو أنه يُخلق بين يدي، كما لو أنه يُفتح للمرة الأولى، يكفيني أن أغمض عيني لأمحو كل شيء ثم أبدأ من جديد، وهكذا في كل مرة يولد الفم الذي أعشقه، أي الفم الذي تختاره يدي وترسمه في وجهك،إنه فم تم اختياره من بين كل الأفواه، بحرية تامة اخترته، لأرسمه بيدي في وجهك، وعلى سبيل المصادفة التي لا

Twitter: @ketab_n

أود تفسيراً لها، يتطابق تماماً مع فمك الذي يبتسم تحت يدي التي ترسمه لك.

- 112 -

أشرق الصبح، ورحل الليل الذي بدا وكأنه لم يكن له وجود. تناوب ماركوس وناتالي لحظات اليقظة والوسن، جامعين بذلك الحدود بين اليقظة والحلم.

– أرغب كثيراً في النزول إلى الحديقة. قالت ناتالي

– الآن؟

– نعم، سوف ترى. عندما كنت صغيرة كنت أذهب دوماً إلى هناك في الصباح، يوجد جو غريب عند الفجر.

نهضا بسرعة، وارتديا ملابسهما على مهل[52]، ناظرين إلى بعضهما، مكتشفين بعضهما تحت نور الضوء البارد. جرى هذا ببساطة. نزلا السلم بهدوء كي لا يوقظا مادلين. كان هذا حرصاً لا لزوم له، لأن مادلين كانت تقريباً لا تنام عندما يكون لديها زوار. لكنها سوف لن تزعجهما، كانت تعلم بانجذاب ناتالي لهدوء الصباح في الحديقة (أخيراً لكل طقوسه الخاصة به) فكل مرة كانت تأتي إلى هنا، كانت تذهب في الصباح الباكر لتجلس على المقعد في

---

[52] قد يكون حدث العكس. (الكاتب)

Twitter: @ketab_n

الحديقة، فور استيقاظها.

كانا في الخارج. توقفت ناتالي لتتفحص بعض التفاصيل. قد يكون بمقدور الحياة التقدم، قد يكون بمقدورها أن تُدّمر وأن تسلب، لكن هنا، لا شيء يتغير: إنه الحيز الغير قابل للتغيير.

جلسا، كان هناك هذا الانتشاء الحقيقي بينهما، انتشاء اللذة الحسية، شعور ما يوجد في روائع القصص، لحظات مسروقة من الكمال، دقائق تُحفر في الذاكرة لحظة نعيشها، ثوانٍ كانت على وشك تشكيل جنين مستقبلهما.

«أشعر بالارتياح» همست ناتالي.

كان ماركوس يشعر بسعادة تامة. نهضت، ورآها تسير بين الأزهار، وبين الأشجار، تاركة يدها تتلمس كل ما يقع تحت متناولها. كانت علاقتها مع الطبيعة هنا حميمية جداً. ثم، لم تلبث أن توقفت بمواجهة شجرة: «عندما كنت ألعب المستخباية مع أبناء أعمامي، كان يجب أن أستند على هذه الشجرة وأغمض عينيّ وأقوم بالعد. كان هذا يستمر لوقت طويل، كنا نعد حتى 117.

– ولماذا 117؟

– لا أعرف، قررنا هذا العدد، واعتمدناه، دون تفكير مسبق.

ابتسمت له، كانت تتمنى بشدة لو تقترح عليه اللعب. أخذت وضعيتها أمام الشجرة، وأغمضت عينيها، وبدأت بالعد.

ذهب ماركوس للبحث عن مخبأ، لكن هذا كان طموحاً لا طائل منه، كانت هذه المنطقة ميدان ناتالي، ومن المفترض أنها تعرف كل الأمكنة. كان يسير عبر سنين ناتالي: ففي سن السابعة لابد وأنها

Twitter: @ketab_n

قد اختبأت وراء هذه الشجرة، في الثانية عشرة بالتأكيد هي هربت نحو تلك الأجمة، وهي مراهقة، لابد وأنها قد رفضت وجهة نظر طفولتها، فسارت أمام الأشواك وهي عابسة الوجه، وفي الصيف الذي تلاه، غدت شابة، فكانت تجلس فوق هذا المقعد، حالمة، تشعر بأمل رومانسي في القلب. تركت حياتها اليافعة الكثير من الآثار في أماكن عدة. ربما أيضاً مارست الحب وراء تلك الأزهار؟ كان فرانسوا يركض وراءها في محاولة منه لنزع قميص النوم عنها، دون ضجيج، كي لا يوقظ جديها، كان هناك آثار جري جامح وصامت في تلك الحديقة، ثم كان يلتقطها وهي تحاول التملص منه بمكر، تدير له رأسها، وهي تحلم بقبلاته، يتدحرجان معاً، ثم، لم تلبث أن غدت وحيدة. أين راح هو؟ أتراه كان يختبئ عنها في مكان ما؟ إنه لم يعد موجوداً، وسوف لن يكون له وجود هنا بعد الآن على الإطلاق. في هذا المكان لم يتبقَّ غير العشب، فقد اقتلعت ناتالي كل شيء بثورة من ثورات غضبها، وها هي في هذا المكان، ساجدة لساعات، ولم تجدِ محاولات جدتها في حثها على الدخول بأي نتيجة.

كان ماركوس، عند سيره في تلك الأمكنة، إنما كان يقتفي آثار ألمها، يعبر على أمكنة دموع حبها. بمتابعته السير باحثاً عن مخبأ، كان ماركوس يسير أيضاً فوق كل الأمكنة التي سارت فيها ناتالي بعد ذلك. هنا، وهناك، كان من المؤثر جداً تخيل تلك المرأة المتقدمة في السن التي أصبحت عليها الآن.

Twitter: @ketab_n

وهكذا، في قلب كل ناتالي، توصل ماركوس في إيجاد مخبأً له، إنه أصغر مكان ممكن. شكل هذا أمراً غريباً في اليوم الذي كان يشعر فيه أنه كبير أكثر من أي يوم مضى، ففي كل مكان من جسده، كانت تستيقظ غرائز العظمة.

عندما وجد مكاناً يختبئ فيه بدأ يبتسم. كان سعيداً لانتظارها، سعيداً جداً من انتظار أن تكتشف مكانه.

- 113 -

فتحت ناتالي عينيها.

النهاية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت هنا ببساطة ، في وضوح مطلق ، تنظر إلى نفسها كما لو أنها تلعب دوراً كإحدى الممثلات فوق خشبة المسرح ، وبازدواجيتها تلك راحت تراقب بنظرة ذاهلة تلك المرأة التي لم تعد هي ، تلك التي كان باستطاعتها التواجد في عالم الحياة والإغواء . أنارت تلك اللحظة وبشكل جلي تماماً كل التفاصيل المتعذرة التحقق .

لكن شارل لم يكن يرى شيئاً ، كان يسبح في المراحل الأولى ، محاولاً دفعها للشرب كي يتمكّن من الدخول قليلاً في حياتها . كان مقهوراً ، فمنذ شهور وهو يراها روسية . هو لا يدري تماماً ماذا يعني هذا التعبير ، لكن هكذا كان الحال : في أفكارها ، كانت ذات قوة روسية ، كما في حزنها ، وبهذا الشكل ، سافرت أنوثتها من سويسرا إلى روسيا .